عبقرية الخط العربي
في الحضارة الإسلامية

الكتاب : عبقرية الخط العربى فى الحضارة الإسلامية
الكاتب : حازم محمد
الطبعة : ٢٠١٥



الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

حازم ، محمد
عبقرية الخط العربى فى الحضارة الإسلامية – على الشرقاوي – الجيزة - وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٥
ص ، ١٨ سم .
تدمك : ٤- ١٧٨ – ٤٤٦ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ. العنوان رقم الإيداع / ٨٠٨٧ / ٢٠١٥

عبقرية الخط العربي في الحضارة الإسلامية

حازم محمد



مقدمة

للخط العربي مكانة كبيرة وبارزة في العالم العربي والإسلامي عبر العصور، وقد نال الخطاطون كل حفاوة ورعاية وتكريم، وذلك لعناية المسلمين واعتزازهم بهذا الفن العربي الأصيل..

فلا توجد أمة في التاريخ لعب الخط الجميل في حياتها دوراً مهماً مثل الأمة العربية الإسلامية، فأينما أدار المرء عينيه في الآثار الإسلامية القديمة، يجد الكلمات المكتوبة بخط جميل وزخرف إسلامي بديع، تملأ القصور والمساجد والمدارس والبيمارستانات، وعلى الحوائط والسقوف آيات قرآنية وشعارات إسلامية مكتوبة بخط جميل تتناسب مع المكان والغرض الذي كتب من أجله.

ويمتد ذلك إلى المعلقات والقناديل الضوئية والأواني الفخارية والنحاسية والبرونزية، وعلى الصناديق والأبواب الخشبية والمقابض النحاسية، وعلى العملات الذهبية وآلات الجراحة والأسلحة

بأنواعها المختلفة من دروع وسيوف وسهام ورماح، بل إن المسلمين عندما استعملوا البندقية والمسدس والمدفع لأول مرة، عمدوا إلى تزيينها بآيات من القرآن الكريم، من باب التبرك والدعاء بالنصر، والاهتمام بالناحية الزخرفية والجمالية.

ولم يتفق المؤرخون العرب على المصدر الأول ولا المكان الأول للخط العربي، ولا على أول ناقل له، إلا أن من الواضح أن الخط العربي جاء إلى الجزيرة العربية من أطرافها، أي من الدول المجاورة ذات الحضارة المتقدمة والمتفاعلة، ففي بيئة كانت محور التقاء بين عدد من الحضارات، ومحطة للمسافرين من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وتحترف التجارة أو الحراسة أو الوساطة بينهم، أن تأخذ عنهم جميعا، وأن تقلدهم فيما يسبقونها، فكان لها رسمها العربي المستقل.

الفصل الأول

بدايات الخط العربي



نشأة الخط العربي

يعد أصل الخط العربي مشكلة مستعصية، تأرجحت حولها الآراء ولا تكاد تستقر، وللعرب القدامى في ذلك روايات مختلفة، وللمستشرقين المحدثين آراء متباينة.

الرأي الأول: أن الخط توقيف أي أنه ليس من صنع البشر، بل إن الله سبحانه وتعالى قد علمه لآدم فكتب الكتب كلها، وعندما أصاب الأرض الغرق، وجد كل قوم الكتابة التي يكتب بها، وكان من نصيب النبي إسماعيل الكتاب العربي.

يقول ابن فارس: "يروى أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها، آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه، فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي"، ويقول ابن

عباس: "أول من صنع الكتاب العربي إسماعيل عليه السلام، وصنعه على لفظه ومنطقه".

ويضيف ابن فارس: "والذي نقول فيه إن الخط توقيف وذلك لظاهر قوله عز وجل: "اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم"، وقال جل ثناؤه: "والقلم وما يسطرون". هذا وقد ورد أن هذا الرأي لا يقوم على حقيقة علمية ثابتة.

الرأي الثاني: أن الخط العربي اختراع، ويوجد في ذلك روايتان مشهورتان وهما:

- أن العرب قد أخذت خطها عن الحيرة، والحيرة أخذته عن الأنبار عن اليمين، أي أن الخط العربي اشتق من الخط المسند الحميري الجنوبي، ففي الفهرست: قال ابن عباس: "أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان، وهي قبيلة سكنوا الأنبار، وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة"، ويقال: "إن مرامر وضع الصدر، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الأعجام".

وورد في أدب الكتاب للصولي: "أنه سئل المهاجرون من أين تعلموا الكتاب؟ فقالوا: من أهل الأنبار"، وورد في القاموس المحيط: "لذلك تسمي العرب خطها بالجزم، لأنه جزم واقتطع من

المسند الحميري"، وقال حفني ناصف: "وعلى رأينا هذا يكون الخط المسند من أصول الخط العربى".

وقد رد على مجمل هذا الرأي بأمور عديدة أهمها أن الخط العربي لم يقتطع من المسند الحميري كما تقول هذه الرواية، وليس هناك أية علاقة بينهما سوى أنهما قد اشتقا من أصل سامي واحد، كما يظهر من مقارنة الحروف الحميرية.

يعتقد المستشرقون أن الخط العربي نشأ في شبه جزيرة طور سيناء، وكان في بادئ أمره لا يتميز عن الكتابة النبطية، ثم انتشر في صحراء سوريا على تخوم بلاد الشام، ومن هنا انتقل إلى المراكز التجارية والفكرية الكبيرة في بلاد الحجاز، ولعل انتشار الخط العربي في حواضر الحجاز وخاصة في مكة ويثرب، إنما جاء من الحيرة، حيث كانت العلاقات التجارية والأدبية تربط عرب جنوب العراق بالقبائل في بلاد الحجاز.

اللغة العربية وأخواتها

تعد اللغة العربية من أقدم اللغات السامية نشأة، ويطلق علماء اللغة لقب الساميين على الشعوب الآرامية والفينقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية والآشورية، وما انحدر من هذه الشعوب.

وأول من استخدم هذا الوصف في إطلاقه على الشعوب السابقة العالم الألماني "ستلوتزر" في أواخر القرن الثامن عشر، وقد اقتبسه مما ورد في سفر التكوين بصدد أولاد نوح الثلاثة (سام — وحام — ويافث)، والشعوب التي انحدرت من كل ولد منهم.

العربية البائدة:

وتطلق على لهجات كان يتكلم بها عشائر عربية تسكن شمال الحجاز على مقربة من حدود الآراميين، وفي داخل هذه

الحدود وخاصة واحات تيماء والحجر أو (مدائن صالح) ومنطقة العلا في شمال الحجاز.

ولم تصل إلينا هذه اللهجات إلا عن طريق بعض النقوش، عثر عليها أخيرا في مساحة واسعة، تمتد من دمشق إلى منطقة العلا، وكثير من هذه النقوش عثر عليها في واحتي الحجر وتيماء.

ويظهر من هذه النقوش أن المتكلمين بتلك اللهجات كانوا في عزلة من عرب نجد والحجاز، وأنهم فقدوا كثيرا من مقوماتهم العربية، وصُبغوا بالحضارة الآرامية والنبطية، حتى أنهم ليؤرخوا نقوشهم بحرب النبط وتاريخ بصري وحرب الفرس والروم، هذا وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول ق.م.

وتنقسم النقوش التي وصلت إلينا من العربية البائدة إلى قسمين:

القسم الأول:

قسم شديد التأثر بالآرامية: ونقوش هذا القسم ضحلة المادة لا تشتمل إلا على بعض أسماء الأعلام وبعض عبارات قصيرة، وتنقسم باعتبار المناطق التي كشفت فيها، والعشائر التي يظن أنها استخدمتها إلى ثلاث مجموعات: النقوش اللحيانية، والنقوش الثمودية، والنقوش الصفوية، وقد دونت هذه النقوش بخط مشتق من الخط المسند.

وتنسب النقوش اللحانية: إلى قبائل لحيان، ولم يثبت بعد بصورة قاطعة تاريخ هذه النقوش، ولكن يظهر أن أقدمها لا يتجاوز القرن الثاني أو الأول ق.م، وأحدثها لا يتجاوز السادس بعد الميلاد.

أما النقوش الثمودية: فتنسب إلى القبائل التي ورد ذكرها في القرأن، وذكر مساكنها أكثر من مرة، وقد عثر على هذه النقوش في المواطن نفسها التي تعتقد العرب أنها كانت مساكن ثمود، ويرجع تاريخ معظمها إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد.

وأما النقوش الصفوية: فتم الكشف عنها في الحرة بين جبل الدورز وتلول أرض الصفاة، وقد اعتاد المستشرقون أن ينسبوا هذه الكتابات للصفاة، اختصارا في التعبير مع أنها كشفت في الحرة القريبة منها، وقد كشفت كتابات الصفاة في الأودية التي بين جبل الدروز وبين الرحبة، حيث كانت القوافل الصحراوية تسير في هذه الفجاج لصعوبة المرور في أرض الحرة، وكانت هذه الكتابات منتشرة على أديم الأرض، ويرجع تاريخ هذه النقوش إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد، والخط الذي دونت به يشبه الخط اللحياني، غير أنه مختلف الاتجاهات، فتارة يقرأ من اليمين إلى الشمال وأخرى من الشمال إلى اليمين.

ويرجع قسط كبير من الفضل في حل النقوش الصفوية إلى المستشرق الألماني (ليتمان)، فقد جمع من هذه المنطقة نحو ألف وأربعمائة نقش، ثم عكف على دراستها زمنا طويلا، فكشف حروفها الأبجدية وحل معظم رموزها.

وقد اتضح للمستشرق الألماني ليتمان أن الخطوط الصفوية مركبة من ثماني وعشرين حرفا، كما هي بالعربية، لذا قال ليتمان مستنتجا "أن أصحاب كتابات منطقة الصفاة كانوا من العرب، وليس بينهم وبين قبائل العرب في الجزيرة فروق كبيرة".

وخلاصة القول: "إن أصحاب النقوش الثمودية والصفوية من العرب أو هم أقوام لهم اتصال متين بلغة العرب، ولكن العناصر الأعجمية الكثيرة البارزة فيها شوهتها وحرفتها كثيرا، إلى أن محت منها شيئا غير قليل من الروح العربية والأسلوب العربى، حتى أن اللغة العربية تضاءلت أمام الحضارات الأخرى البارزة في تلك النقوش".

العربية الباقية:

وهي التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها، والتي لا تزال تستخدم عندنا وعند الأمم العربية الأخرى، لغة أدب وكتابة وتأليف، وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز، ثم انتشرت في كثير من المناطق التي كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية

والحامية، وتشعبت منها اللهجات التي يتكلم بها في العصر الحاضر في الوطن العربي.

وقد وصلت إلينا العربية الباقية عن طريق عن طريق آثار العصر الجاهلي والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وآثار العصور الإسلامية المختلفة، ولا نعلم شيئا عن طفولة هذه اللغة، إذ لم يعثر العلماء في مواطنها الاولى بنجد والحجاز على آثار منقوشة أو مكتوبة تلقي ضوءا على حالتها الأولى، وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يعرف بالأدب الجاهلى.

ويرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس بعد الميلاد على أبعد تقدير، وهي تمثل هذه اللغة في عنفوان اكتمالها وعظمتها، بعد أن اجتازت مراحل كثيرة في التطور والارتقاء.

العصر الجاهلي والتدوين

تجمع الدراسات الحديثة، على أن العرب عرفوا الكتابة منذ العصر الجاهلى، خاصة في مراكز التحضر المختلفة آنذاك، في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة العربية وفي شمالها العربى، وفي اليمن جنوبا وفي الحجاز أيضا وفي مكة والمدينة.

فيقال إنه عند مجيء الإسلام كان في مكة سبعة عشر كاتبا، وفي المدينة أحد عشر كاتبا، وإن كان هناك من يعتقد أن عددهم في هاتين المدينتين كان أكبر من ذلك، بل إن الكتابة تسربت في ذلك العصر إلى القبائل في البوادى، فقد كان أكثم بن صيفي (حكيم قبيلة تميم) يعرف الكتابة، وكذلك كان الشاعر الجاهلي المسمى بالمرقش الأكبر (وهو ربيعة بن سعد بن مالك، ويقال: بل هو (عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) يعرفها،

وحين نزل القرآن الكريم، دعا العرب إلى ضرورة استخدام الكتابة في بعض المعاملات.

على أن من الباحثين من ينفي التدوين في العصر الجاهلي فيقول": "لم يكن للعرب في فترة ما قبل الإسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة، فقد غلبت عليهم البداوة واستغرقت حياتهم في التنقل، ففشت الأمية ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة، تنبئ عما كان لهم من دور حضاري حتى إن هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا في بعض المناطق العربية كجنوبي جزيرة العرب وشماليها، حيث توجد الأحجار والصخور".

الخط العربي في الجزيرة العربية

على إيقاع آيات الوحي يتردد صدى إيقاع الكلمات المكتوبة، ليحتل الخط العربي في جو من الصمت مكانة الكلام الشافي، ويصل بالنص النهائي إلى ذروة الكمال والجمال الفني للمعاني والصور القرآنية، ويزيد من جمال هذا الفن الرائع شكل الخط العربي القابل أكثر من أي خط آخر لجمال الحرف وأناقته.

ونجد قصة تطور الكتابة العربية التي يمارسها الخطاطون في كل أنحاء العالم الإسلامي، كما نجد أن عربية القرآن تعود في منشئها إلى لهجة عرب الشمال (شمال الجزيرة العربية) التي اشتقت بدورها من اللغة النبطية التي كانت مشتقة بدورها من اللغة الآرامية، واقدم أصل معروف للكتابة في الجزيرة العربية، هو ذلك المدعو بالجزم وقد انتشرت كتابة الجزم شيئا فشيئا، حتى أصبحت

لغة كل العرب عندما نزل القرآن بها وخلدها، ولقد أدى انتشار الإسلام بعد الفتوحات إلى تأسيس مدن جديدة مثل الكوفة في العراق، وقد تم تأسيسها عام ٦٣٨م – ٣٩ هـ، في ظل الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ثم ازدهرت هذه المدينة، وأصبحت موئلا للعلم والعلماء، وولدت بذلك نوعا جديدا من الكتابة دعيت بالخط الكوفي، وكانت النسخ الأولى من مصحف عثمان بن عفان – رضي الله عنه – قد كتبت بالحرف السائد في مكه والمدينة، والذي هو عبارة عن تنويع محلي على خط الجزم، ثم أصبح المصحف يكتب بعدئذ بالخط الكوفي وغيره من الخطوط العربية التي انتشرت وتطورت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأن خطي المشتق والحجازي المشتقين من الجزم يشهدان على الأساليب الأولى التي أدت إلى نثبت كتابة النص الموحى، لقد اكتسب الخط الكوفي نوعا من الرفعة والاعتلاء، وأصبح الخط الديني الوحيد الذي يستخدم في نسخ القرآن، ويتميز الخط الكوفي بسمتين أساسيتين، هما الحروف العامودية القصيرة والحروف الأفقية الطويلة، وهذا ما جعل الخطاطين يكتبونه على صحائف طويلة أكثر مما هي عريضة، من هنا تنتج الأشكال الطويلة لمعظم نسخ القرآن المكتوبة، فهذا الخط اللهم إلا بعض الاستثنئات القليلة، لم تكن المصاحف المكتوبة بالخط الكوفي تحظى بالزخرفه

إلا قليلا جدا حتى القرن التاسع الميلادي، وبعدئذ ابتدأت الزخارف والتزينات تظهر وتأخذ دورا نفعيا في الغالب هذا، وقد نشأ الخط الكوفي المغربي في مدينة القيروان تلك المدينة التي أسست الغرب عام ٦٧م، وقد كان مسجدها الكبير مركزا ثقافيا، يضم مدرسة لفن الخط، تم فيها نسخ العديد من المصاحف، والخط الكوفي المغربي يبدو أكثر تقليدا ومحافظة، ويتميز بوجود الدوائر النصفية تحت خط الكتابة، هذه الدوائر التي تشكل حروفها الواطئة المبسوطة، وهذه المكورات او الدوائر تعدل هيئة النص، وتجعله سيلا طبقا لإيقاع مرن متسلسل، أما كتابة حروف العلة والحركات التشكيلية التي تتيح التفريق بين حرفين صوتيين، يتخذان نفس الرسم، فقد تطورت بتطور أساليب الخط، وذلك ضمن إطار إصلاح الكتابة العربية الذي تحقق على مراحل متعددة، من خلال بعض الأسماء اللامعة لكبار النحاة العرب.



الخط العربي وخصوصية الحضارة الإسلامية

يعبر الخط العربي عن خصوصية الحضارة الإسلامية التي يمتد الجانب الجمالي والذوق الفني فيها إلى الخطوط العربية،التي تدون بها الكتب والمخطوطات والوثائق ومصادر الثقافة عبر العصور.

بالإضافة إلى التداخل والتماذج بين فنون الخط العربي، وبين فنون العمارة الإسلامية، التي اعتمدت على النصوص والكتابات الخطية في العديد من عناصرها المعمارية والجمالية، كما ترتبط فنون الخط العربي بكتابة المصحف الشريف الذي أكسب الخط العربي حرمة وانتشارا، وضمن القراءة الصحيحة لآيات القرآن الكريم، وخاصة مع تعدد الأجناس التي اعتنقت هذا الدين، وانتشار الإسلام في بقاع الأرض، ومن هنا فإن الخط العربي يعد ركنا أصيلا من أركان الثقافة والحضارتين العربية والإسلامية، وهو جزء مهم من التراث الحي للأمة، يرتبط بلغتها وتطورها

الثقافي، فقصة الكتابة هي قصة الحضارة الإنسانية نفسها ، ولا توجد حضارة أولت الخط وفنونه عبر العصور اهتماما مثل الحضارة الإسلامية، إذ يعتبر الخط العربي من أهم الفنون الجميلة التي تميزت بها حضارة الإسلام، وهو الفن الذي جذب رواد الشرق من الرحالة والفنانين والأدباء، من جميع أنحاء العالم قديما وحديثا، فراحوا يشيدون بما بهرهم في كتابات المساجد والمصاحف وزخرفتها.

الخط العربي ونزول القرآن

إذا نظرنا إلى تاريخ الخط العربي نجد أن عرب الجاهلية كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، ولم يكن للخط دور يذكر في حياتهم، وما إن نزل القرآن حتى تغير الوضع.

دخل الخط العربي الحياة من كل أبوابها، وأول ما ظهر من الخطاطين طبقة نساخ القرآن الذين يكتبونه على عظام الجمال وعلى سعف النخيل، فكانوا بالدافع العقائدي يحسنون خطوطهم، حتى أصبحوا النواة الأولى لكبار الخطاطين الذين ظهروا من بعدهم.

فقد قدر الله - سبحانه وتعالى - حفظ القرآن، وسبب لذلك الأسباب وكان من بين تلك الأسباب الاقلام التي خطت الحرف العربى، وسهرت على تدوين القرآن الكريم في المصاحف، ثم انتقل الخط العربي من مجرد أداة للتوثيق والتسجيل إلى فن قائم

بذاته يقوم على أصول منضبطة، ويجذب إعجاب الناس من مختلف الأنحاء والملل، ولم يحظ خط في تاريخ البشرية من العناية والرفعة مثل ما حظي به الخط القرآني.

كتاب الوحي:

بدأت العناية بالكتابة العربية في حياة الرسول – صلي الله عليه وسلم – واشتهر من الصحابة العديد من كتاب الوحي الذين كانوا يكتبونه للنبي – صلى الله عليه وسلم – مثل أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبو سفيان وابنه معاوية وسعيد بن العاص، وزيد بن ثابت والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، والعلاء بن الحضرمى، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص – رضي الله عنهم.

الخط العربي وكتابة المصحف

المصحف الشريف له مكانة مقدسة في نفوس المسلمين لما يتضمنه من كلام الله تعالى، لهذا فقد لقي رعاية بالغة منهم عبر التاريخ من ناحية الشكل والخط والتزيين، نقلا عن المواد المستخدمة من صحف وورق وعسب ولخاف (بعض أنواع الحجارة)، وغير ذلك من مواد الكتابة وفنون التجليد.

ورحلة الخط العربي في أرقى مستوياتها عكسها المصحف الشريف عبر العصور، من خلال تنافس وتباري الخطاطين في كتابته ونسخه وإجادة خطه، ومن هنا جمع المصحف على صحائف من الرق متشابهة في الطول والعرض متفقة في النوع، بعد أن كان مدونا على قطع كبيرة وصغيرة من العظم والعسب.

أول من كتب المصاحف:

ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست، أن أول من كتب المصاحف في الصدر الأول للإسلام ووصف بحسن الخط هو (خالد بن أبي الهياج)، حيث رأى ابن النديم مصحفا بخطه، وكذلك أيضا شخص يدعى (سعد خصه) كان يكتب المصاحف للخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، ويذكر أنه هو الذي كتب الآيات القرآنية الموجودة في قبلة المسجد النبوي في المدينة بالذهب، أما المصحف المعروف بمصحف "أماجور" في العصر العباسي، فيعد أقدم المصاحف التي تحمل تاريخا محددا، ويتعرف الخبراء على المصاحف الحجازية أو الكوفية المبكرة من خلال طريقة شكل كلماتها وغياب الإعجام أغلب حروفها المتشابهة، كما يتميز كذلك بأن عرضها أكثر طولا من ارتفاعها.

الفصل الثاني

الخط العربي
وتطور الفكر الإنسانى



عالمية الخط العربي

يثير الخط العربي تساؤلات عديدة كما لم يثره أي فن من الفنون، وذلك لشموله جوانب عديدة من حياة الإنسان، وميادين مختلفة ذات تماس مباشر باحتياجاته الجمالية والوظيفية، فهو لا يخص ذوي الشأن من الخطاطين، بل تعدى ذلك إلى كونه أحد أهم الفنون التي تعكس تطور الفكر الإنساني في الدراسات الانثربولوجية الحديثة.

وما زالت جميع الميادين (التاريخية – واللغوية – والحرفية – والتقنية)، بحاجة إلى مزيد من الدراسات والبحث والتطوير، ولعل موضوع استخدام الخط العربي في الفنون البصرية والتشكيلية، والذي يضفي عليها طابعا عربيا وإسلاميا أحد الموضوعات المهمة، التي لا تقتصر على الجانب التطبيقي في هذا الاستخدام، وإنما تستند إلى منطلقات فكرية وجمالية وتقنية.

وهناك صلة بالفكر العربي الإسلامي ونقاط تقاطع مع الفكر الغربي من عدة نواحي منها:

الناحية الفكرية: وتتمثل في اختلاف الفكر الإسلامي عن الفكر المادي الغربي.

الناحية الجمالية: وتتمثل في الاختلاف بين الجمال المطلق والجمال النسبي.

الناحية التطبيقية: وتتمثل في إشكالية عمليتي الإبداع والإتقان.

الناحية التقنية: وتتمثل في استخدام الأدوات والمواد وأساليب المعالجة المختلفة.

والسؤال الأكثر أهمية هنا هو تلك الإشكالية التي يثيرها استخدام الخط العربي في اللوحة التشكيلية على الطريقة الغربية، إذ يسعي العديد من الفنانين المحدثين إلى الاستفادة من المدارس الفنية الغربية بتقنياتها المتعددة لجعل الحرف العربي عنصرا جماليا من عناصرها الفنية، لأجل منحها تلك الخصوصية التي تمثل الفكر العربي في جانب من تجلياته الجمالية، ولما لم يكن أولئك الفنانين التشكيلين خطاطين بالمعنى الحقيقي في إتقان تلك القواعد والأصول، فقد كان استخدام الخط العربي عندهم ذا دلالة شكلية أو رمزية، تعبر عن الحركة أو دلالات فكرية مجردة، أو كأداء يعبر عن صوت ذلك الحرف، أو بتأويلات أخرى متعددة لازمة

لأسلوب الفنان ونزعته الذاتية، إلا أن هذا الاستخدام بالنسبة للفن العربي كان يعني انهيار المنطق الجمالي للخط العربى.

وتمتاز الحروف العربية بأنها تكتب متصلة أكثر الأحيان، وهذا يعطي للحروف إمكانيات تشكيلية كبيرة دون أن تخرج عن هيكلها الأساسى، ولذلك كانت عملية الوصل بين الحروف المتجاورة ذات قيمة مهمة في إعطاء الكتابة العربية جمالية من نوع خاص من حيث تراصف الحروف وتراكيبها وتلاحقها، كما أن المدات بين الأحرف والتي يمكن التكيف في بعض الحروف مثل (ب، ت، ف، س، ش) وغيرها، تساعد على إعطاء الكتابة العربية تناسقا ورشاقة كل ذلك يعطي للكتابة العربية تفردا في جمالها بين الكتابات العالمية، وهذا ما جعلها تدخل في صميم الفنون التشكيلية قديما وحديثا، وقد انبرى المستشرق "ريتر" أستاذ اللغات الشرقية في جامعة إستانبول في العهدين العثماني والكمالي يدافع عن الكتابة العربية، وأخذ يسفه رأي من استبدل الحروف اللاتينية بها بقوله: (إن اللغة العربية أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة، لتسهيل السهل وتوضيح الواضح، إن الطلبة قبل الانقلاب الأخير في تركيا كانوا يكتبون ما أمليه عليهم من المحاضرات باللغة العربية، وبالسرعة التي اعتادوا عليها لأن الكتابة العربية مختزلة من نفسها، أما اليوم

فالطلاب يكتبون ما أمليه عليهم بالحروف اللاتينية، ولذلك فهم يطلبون إلى أن أعيد على مسامعهم العبارات مرارا، إنهم معذورون ولا شك فيما يطلبون، لأن الكتابة اللاتينية معقدة لا اختزال فيها، والكتابة العربية واضحة كل الوضوح. ويقول المستشرق باريت: "إن الخطاط ليتحكم في الأحرف التي يكتبها تماما، كما يتحكم الموسيقي في أحاسيسه وهو يصوغ نغما بآلته، ويقول الخليفة العباسي المأمون (لو فاخرتنا الملوك الأعاجم بأمثالها، لفاخرناها بما لنا من أنواع الخط، يقرأ في كل مكان ويترجم بكل لسان ويوجد في كل زمان).

إن الحروف العربية قد خدمها علماء العرب المسلمين خدمة جليلة بحيث لا يتطرق إليها خلل ولا يطرأ عليها تغيير، فعلماء القراءات الأجلاء لم يكتفوا بقراءة القرآن الكريم الذي هو بلسان عربي بمجرد النظر إلى صور الحروف التي هي عربية أيضا، وإنما وضعوا لقراءتها قواعد تحفظ اللسان من الخطأ في نطق الحروف والقابها وصفاتها وما ينجم منها وما يرقق وما يدغم.

التطور وانعكاسه على الخط العربى

لقد طور المجتمع العربي الإسلامي ذاته في فترة اتسمت بالعطاء الكبير والمتنوع، وقد انعكس ذلك على فن الخط، حيث حمل خصائص الثقافة والحضارة، وبقي محافظا عليها حينا من الدهر، ونحن إذ نمارس الخط بعد أربعة عشر قرنا خلت ولابد أن نتناغم معه فكريا ووجدانيا.

مستلهمين تلك الخصائص السابقة التي لا تزال موجودة رغم التطور الكبير الذي لحقها، فألقي بغبار الزمن والتخلف عليها، ولكنه لم يندثر ولم يتشوه، وسيبقى له الرواد الذين يرفعون لواءه نحو المجد والعزه والفخار.

إن الدعوة إلى التفاعل الثقافي ومع العولمة أخذا وعطاء دون وجل، ومن موقع الثقة بأنفسنا وبثقافتنا وبحضارتنا إنما تستلزم القدرة على الإسهام والمشاركة، وذلك يتطلب أن يكون لدينا ما

نسهم به ونشارك، حيث لم يكن من السهل على حركة الخط العربي في هذا الوقت، وعند بعض المجتمعات أن تبقي ثابتة القوى راسخة البنيان، وذلك أن ثورة العولمة تسير جنبا إلى جنب مع التيارات التي تتمسك بمبدأ التغير والتبديل، وتمضي في كثافة شعوبية ومساندة مجتمعية ومسلحة بتكنولوجيا حديثة، بدأت تغزو ثقافة الفنون، وترتكز على أكتاف الذين يهرولون وراء شعارات براقة ومسميات لماعة، تدخل جميعها في تغييب عنصر التراث والأصالة، ذلك أن القليل من الناس هم الذين ينظرون إلى حركة الخط العربي بأشكال متنوعة واتجاهات متعددة وأنماط مختلفة، وأن هذه القلة القليلة لا تستطيع أن توقف تيارا هائجا، يحملون جميع وسائل الدعاية وبألوان الطيف المختلفة وبأجهزة حديثة متطورة، لذلك قامت هذه الثورة على أنقاض هؤلاء القلة، كما أن التيار الأكثر في مجتمعاتنا ينظر إلى حركة الخط العربي من منظور الإعلان والصورة والحجم والدلالة، وإذا انتقلنا إلى البعد الأخلاقي لهذا الغيير فإن مجموعة من الأسئلة ستثار في هذا السياق.

فأولا: علينا أن نتعرف على هدف عولمة الخط العربي في هذا الوقت بالذات، ذلك أن الأمم تفتخر بتاريخها المجيد، وتستنهض أبناءها في سبيل الحفاظ على ذلك التراث، كما أن غياب ذلك التاريخ هو في الوقت نفسه تفكيك كيان الأمة ورميها بعيدا عن الضوء والدراسة والبحث والتأويل، والأمة التي تفقد جزءا من

تاريخها هي الأمة التي تستسلم للضياع وتفقد مقومات الإبداع، وأي بادرة في دراسة ذلك التاريخ سيكون غائبا ومهمشا، وهذا بالفعل هو ما تنادى به الجانب الثقافي والفكري في هذه العولمة عبر منظومة قوية قادرة على إضفاء روح القابلية والاستجابة، وأن أي خلل أو تفكيك لذلك التراث سيفقد الأحكام القيمية التي تأتي من ظهراني ذلك الفن بأبهى حالاته وأجمل صوره، كما أن نتاج ذلك الفن ليس مقتصرا على شخص دون آخر، وهي ليست رؤى شخصية، ولكنها تاريخ أمة قام بها مجموعة من الفنانين والمحترفين والموهوبين الذين فتحوا العالم وأضاءوا على الدنيا نورا وهاجا، وحملوا إلى الإنسانية حللا من العبقرية كانت رسالة الحق والخير والجمال.



دور الخط العربي في بناء الحضارة

لا شك في أن اختراع الكتابة كان من أهم منجزات الإنسان، ولعل ذلك هو البداية الحقيقية لحضارة الإنسان، ومسيرة الفكر الإنسانى، ذلك أن الإنسان البدائي كان يعتمد في تجربته الذاتية في استكشاف معالم الطبيعة التي تحيط به.

ويعد الخط العربي منذ بداياته الأولى إلى يومنا هذا رمزا من الرموز المهمة في بناء الحضارة العربية الإسلامية، بل والإسهام في الحضارة الإنسانية، كما يؤكد الخطاط العربي المسلم تفوقه في هذا المجال، لدرجة جعلت كل دارسي الخط العربي يجمعون على أن الفنان المسلم جعل للكلمة وظيفة جمالية مرئية إلى جانب وظيفتها السمعية، وقد حظي الخط العربي في الإسلام بعناية خاصة فهو ترجمان القرآن الكريم، ووسيلته التي حفظه بها على مر العصور، حيث حرص الفنان المسلم على مدى أربعة عشر قرنا على تجويد

الخط العربي وتحسينه ووضع أقصى ما يمكن أن يضعه العقل البشري من القواعد والمعايير في سبيل تجويد هذا الفن وأحكامه، لتكون بمنزلة قوانين ونظريات هندسية غاية في الدقة لا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، ويرجع إليها كل من أراد حذق الكتابة.

انطلاق الخط العربي

اتسعت رقعة الخط العربي وازداد انتشاره وتعددت أشكاله وتطورت أنماطه مع اتساع رقعة الدول الإسلامية والأمم والأمصار التي اعتنقت الدين الإسلامى، وعزز هذا الانتشار جودة الأداء في خطه ورسمه.

فظهرت أنواع عديدة من الخطوط التي ارتبطت مسمياتها بالشعوب والمدن التي ظهرت فيها، فكان الخط في مكة يسمى بالخط المكى، وفي المدينة يسمى بالخط المدنى، وظهر الخط الكوفي والفارسي والرقعة والثلث والنسخ والديوانى.

ومع انتشار الإسلام والفتوح الإسلامية، أصبحت الكتابة العربية فجأة تواجه أعرق الحضارات في مضمار الكتابة، ومن ذلك الكتابات الفارسية القديمة والفرعونية والآشورية والهندية، ولكنها بفضل القرآن سرعان ما اكتسحت هذه اللغات فحلت

الحروف العربية محل الحروف الفهلوية عند الفرس واستخدمها الأفغان والباكستانيون في كتابة لهجاتهما، وفي الهند حلت الكتابة العربية مكان الأوردية والهندوستانية، وكذلك كتبت بها النصوص الدينية والإسلامية في الصين، وفي عدة بلدان مثل سمرقند ونجاري وجنوبي روسيا، وأصبحت اللغة العربية لغة العلم والأدب الأولى في العالم كله على مدى عدة قرون حتى قدر المؤرخون الغربيون أن ما كتب من مؤلفات باللغة العربية في أنحاء العالم الإسلامي من غير العرب أضعاف ما كتب من العرب وفي العالم العربى، ومع هذا الاتساع في استعمال العربية اتسع أيضا فن الخط العربى.

واستطاع الخط العربي في رحلته الطويلة أن ينتشر في كثير من بقاع المعمورة، فقد تألقت زهوره في الشام وملأت عطوره العراق وفارس والسند وخراسان، واستطاع أن يتغلغل في بلاد أرمينيا والقوقاز وآسيا الصغرى وإفريقيا والمغرب العربي والسودان وجنوب فرنسا وصقلية، منتشرا كأنه جيش من العلماء الداعين لانتشار الحضارة، واضعا آثاره الواضحة على كل مظاهر الحياة والناس، لقد استطاع الخط العربي في رحلته الطويلة أن يحل محل خطوط كثيرة كانت موجوده في عدد من الأمصار، وأن يسيطر عليها إما بالتغير أو بألغائها تماما، كما سادت لغة العرب على لغات محلية سابقة لها، فمن إقليم لآخر كان الشكل الواحد من

الخط العربي يأخذ أشكالا مختلفة دون أن تنفصل هذه الأشكال الجديدة عن الشكل الأساسي الأصل، فمثلا نجد الخط الكوفي الأندلسي يختلف قليلا عن الخط الكوفي القيرواني، كما أن هذين الخطين يختلفان عن الخط الكوفي نفسه الذي انتشر في دمشق وبغداد والقوقاز، وقد تطورت بعض أساليب الخط، وتألقت، كما تخلف بعضها، وتجمد في بلاد أخرى، وذلك بفضل الأشكال الحضارية في مدها وانحسارها، ومن خلال المتغيرات الحضارية استطاع الفنان العربي المسلم أن يطوع المادة التي يكتب بها خطوطه، وقد تضافرت جهود الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام على تجويد هذا الفن الجميل، وكان المساعد الأكبر على ذلك رغبة المسلمين في تجويد هذا الفن الجميل، وكان المساعد الأكبر على ذلك رغبة المسلمين في تجويد كتابة المصحف الشريف الذي لا يعد له عندهم كتاب، وقد ذكر ابن خلدون انتقال الخط للعجم وسبقه النديم في كتابة الفهرست الذي ذكر الخط الفارسي فقال: "إن الفرس اشتقوا خط التعليق من الخط العربي (القيراموز)، ولم يصل إلينا نموذج من القيراموز"، لقد كان الفرس قبل الإسلام يكتبون بالخط الفهلوي نسبة إلى فهلا، فأبدل بالخط العرب بعد رسوخ الإسلام عندهم، أما اشتقاقهم لخط التعليق المذكور فقد كان نتيجة مزاوجات لأحد الأقلام العربية، وأشهر من وضع

قواعد التعليق المركبة هو (مير على تبريزى)، وذكر النديم أنه كان للفرس سبعة أنواع من الخطوط منها كتابة يقال لها (دين دفيريه)، يكتبون بها الوستاق وكتابة أخرى تسمي (ميش دبيريه)، وهي ٣٦٠ حرفا يكتبون بها الفراسة والزجر وخرير الماء وطنين الأذان، وإشارات العيون والإيحاء والغمز، وما شاكل ذلك، وكتابة ثالثة يقال لها (كستبح) وهي ثمانية وعشرون حرفا، يكتب بها العهود والقطائع، وبها كانت نقوش خواتيم الفرس، وطرز ثيابهم وفرشهم وسكة دراهمهم، وكتابة رابعة يقال لها (بيم كشتج)، وهي ثمانية وعشرون حرفا، يكتب بها الطب والفلسفة، وكتابة خامسة يقال لها (الشا دبيريه) وكانت ملوك الأعاجم يتكاتبون فيما بينهم، وكتابة تدعي (راز سهرية) كانت الملوك تكتب بها الأسرار مع من يريدون من سائر الأمم، وكتابة تدعى (رأس سهرية) يكتب بها المنطق والفلسفة، وممن اشتهر من خطاطيهم نجم الدين أبو بكر الراوندى، وقيل إنه كان يجيد سبعين نوعا من الخطوط، وقد بلغت فنون الزخرفة والرسم عندهم أوجها من القرن التاسع الهجري وممن ذاع صيته فيها (مير على تبريزى) وسلطان على المشهدي من هراة، وهو الذي أدخل التحسينات على الخط الفارسى، ومير عماد الحسني وغيرهم كثيرون، أما رئاسة تعليم الخط فقد انتقلت إلى مصر بعد خراب بغداد، وصارت إلى عفيف

الدين وطبقته، وقال ابن خلدون: "وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر، وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب، وأجيد كتبها وتجليدها، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه، ثم عندما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت، تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة – بغزو المغول، فانتقل شأنها من الخط والكنابة، بل والعلم إلى مصر والقاهرة، أما الشرق فبحوره زاخره، وإن كانت قد خربت بغداد والبصرة والكوفة، إلا أن الله تعالى قد أحل محلها أمصارا أعظم، وانتقل كل ذلك منها إلى عراق العجم والهند وما وراء النهر من المشرق، وانتقل منها إلى غيرها من الأمصار، ونجد تعليم الخط في هذه الأمصار أبلغ وأسهل وأحسن طريقا، لاستحكام الصنعة فيها كما يحكى عن مصر، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط، يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف وفق موازين الحروف المعروفة، فتجتمع لدى المتعلم رتبتا العلم والحس في التعليم، وتأتي ملكته على أتم الوجوه، وأما في انتقال سند تعليم الخط إلى الأمصار الشرقية والغربية، فقيل: "وبعدت رسومه وأوضاعه حتى انتهت إلى المتأخرين منهم ياقوت والولي العجمي ووقف سند تعليم الخط عليهم، ثم انتقل ذلك إلى مصر، وخالفت

طريقة العراق بعض الشيء ولقنها العجم هناك، فصارت عند العجم مخالفة لخط أهل مصر.

لغات عالمية بحروف عربية

من البلدان التي تكتب أحرف لغاتها بالرسم العربي ماليزيا وجاوة ومدغشقر وايان وأفغانستان والهند وباكستان، والمقاطعات الناطقة بالأردية في كشمير وجامو التي كانت العربية لغتها الرسمية حين الاستقلال، وظلت تركيا تستعمل الأبجدية العربية حتى مجيء مصطفى كمال أتاتورك الذي أرغم الأتراك على استعمال الأبجدية اللاتينية.

علما بأن الحروف اللاتينية لم تف بالمتطلبات الصوتية، وقد اضطرهم ذلك إلى تعديلها بمزيد من التنقيط والأحرف غير الضرورية.

واستعملت روسيا الأبجدية العربية طويلا، وتحولت هي الأخرى إلى اللاتينية، ثم عدلت عنها إلى السلافية، واستعملت إسبانيا الأبجدية العربية، وأفادت منها كثيرا ولا سيما في الأندلس،

ونجد اللغة العربية منتشرة أيضا في أطراف السنغال، وأقاليم من الصومال ونيجيريا وكينيا وليبيريا والحبشة، وإريتريا وزنجبار وقازان والقرم وداغستان وتركستان وقرجستان وخوارزم والقوقاز وجيبوتي وأذربيجان وروسيا البيضاء ومالطة وسيام والفلبين والصين.

أثر الخط العربي في الفنون الغربية

ظهر تأثير الخط العربي في أوروبا منذ القرن الثامن الميلادى، وانتشر في أماكن كثيرة منها، وخاصة في صقلية وإيطاليا وإسبانيا وغرب فرنسا، ويبدو ذلك جليا في قطعة من العملة الذهبية بالملك أوفا (٧٥٧-٧٩٦م) ملك مرسيه.

وهي تشمل على كتابة نصها (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، وأيضا يبدو في ربع دينار باسم الملك غليالم (١١٥٤ – ١١٦٦م) ملك صقلية، جاء على وجهه كتابة بالخط الكوفي نصها (الملك غليالم المستعين بالله)، وقد استفاد النحات الفلورنسي فيروكيو (١٤٥٣-١٤٨٨م) أستاذ ليوناردودافنشي من الخط العربي في زخرفة لوحة تبجيل الملوك المحفوظة في فلورنسا، وكذلك في تمثاله داود المحفوظ في البارجيلو بفلورنسا، وفي ألمانيا رسم المصور هانز هولبان (١٤٧٩-١٥٤٣م) عديدا

من اللوحات التي تظهر فيها سجاجيد مزخرفة بالخط العربي والكوفى، وفي مستهل القرن العشرين، وحينما انتشرت التجريدية بمفهومها الجمالي البحت، بدأ الحرف العربي من أجمل الصيغ الشكلية المجردة ذات التناسق التشريحي والتركيبى، بالنسبة إلى أي إنسان لا يفقه دلالة ذلك الحرف المعنوية، وهكذا ظهر من الفنانين التجريدين المعاصرين في أوروبا من استخدم الحرف العربي في توليف أشكاله الجمالية ذات المذاق المتفرد الخاص، كما نرى مثلا عند (بولي كلى) (وهوفر) و(توبى) مستخدمين فقط الشكل دون المحتوى المعنوى.

وفي الوطن العربي ومنذ بداية الستينيات من القرن العشرين، بدأت تنمو حركة تميزت بالتنوع والخصوبة، نزع فيها بعض فنانينا التشكيليين نحو استلهام أشكال الخط العربي في توليف أعمال تنوعت بين الاستغلال الإبداعي لتقوسات وتلافيف الحروف العربية في إبداع أشكال جمالية بحتة.

إن الفنون الجميلة عند العرب بكافة فروعها من فن معماري وزخرفة وفن الخط، صناعة أدهشت العالم ووضعتها أمام جوهر المبدع المنطلق من الجمال الإلهي والممتزج بالقدرة البشرية.

الفن الإسلامي والخط العربى

يشهد الفن الإسلامي والخط العربي في مضمون المنجز الفني غيابا كبيرا للموضوع، وهذه المبدئية هي ترجمة لغياب الإنسان والطبيعة أو جودهما النسبي أمام قدرة خالقها المطلقة، لأن الوجود الذي يشهد عليه الإنسان أو الوجود الذي تشهد عليه الطبيعة.

هو وجود عرضى، وبالتالي فهو وجود يشهد على الوجود المطلق والجوهري وهو الله عز وجل، إذ إن الموضوع الحاضر في العمل الفني الإسلامي هو الغيب والإيمان به، وبالمعاني الجليلة التي تدركها البصيرة قبل البصر، وهو في نفس الوقت القيمة الحية والجوهرية في الفن الإسلامى، وما وجود الإنسان والطبيعة ومظاهرهما إلا شهادة على وجود الحي المطلق.

ويتسم العمل الفني الإسلامي والخط العربي عموما بمظهر جذاب متناسق ومتوازن، يشكل سمفونية رائعة، ويسر الناظر إليه بشدة بما يتصف به من تناغم وتوافق ووحدة بين أجزائه، ونحن لا نجد عملا فجا أو غير متجانس، وهذه المقولات كانت أساسا ترتكز على جانب مبدئى، وهو عدم الاكتفاء بالمثل العليا التي تخص الإنسان، وإنما تحول مبادئ هذا الفن إلى جانب تطبيقى، تدخل في خدمة الإنسان واستعمالاته اليومية، ودعوتها الصريحة فيما يتناول من كتابات وأعمال إلى الخير والفضيلة والارتقاء بمثل الإنسان وقيمه، ومن هنا يتوضح للفنان بأن هناك نقاط اختلاف فكرية وفلسفية، يتوجب أخذها بعين الاعتبار عند استخدام الخط العربي في اللوحة التشكيلية، وعند إعادة قراءة الخط العربي وفق الرؤى الحديثة، لوجدنا أن الحرف العربي يتضمن كل القيم الفنية التي تجعل منه فنا مستقلا بذاته، بل تبلغ استقلاليته العالية إلى درجة تأخذ بالألباب والعقول والقلوب بوحدة متكاملة عند النظر إليه، فيطغى على كل ما حوله من أشكال وعناصر، ولعل سعة استخدماته المختلفة دليلا واضحا لقدرته الفنية والجمالية والوظيفية، على تغطية العديد من الحاجات الإنسانية المختلفة، ولا شك أن نقاط الخلاف المتعددة تشكل قيودا على العملية الفنية والحرية التعبيرية لدى الفنان المعاصر، خاصة إذا كان يفهم الحرية

الإبداعية من وجهة النظر الغربية، مما يؤدي بها إلى التناقض بين الفكر والممارسة في نظرية الفن وتطبيقاتها العملية، فهل هذا يعني بقاء الخط العربي ضمن منطقة الجمالي الحالي، وعدم إمكانية تحوله، لا شك أنه يمتلك من المقومات والخصائص التي جعلته يحافظ على بنيته الأساسية منذ قرون عديدة، لأنه اكتسب قوانينه وفلسفته من البيئة العربية الإسلامية بكل معطياتها، وأثرى ذلك المناخ الديني والفكري نواحي عديدة في تعدد أشكاله وصوره، ولعل أولى الأسباب في ذلك هي تجذر أصوله في تلك البيئة، واستحضار المناخ الفكري لنشأة الخط العربي وتطوره، يعني استحضار العديد من القيم النبيلة في المجتمع العربي من صدق ووفاء وأمانة وإتقان وإخلاص وفضيلة.

إن البحث عن لغة جديدة للتعبير عن الخط العربى، تستوجب عدم إغفال ذلك المنطق الذي ارتكز عليه الجمال في أصوله وحرفياته، وإبراز مقولاته في تلك القيم التي لم يكشف عنها، وتحتاج إلى مزيد من البحث والتحليل، فهل يعني استقرار قواعده وأصوله نهاية المطاف لاكتمال شكله الفني النهائى، والخط العربي يستمد قيمة كيانه الجمالي من تلك القدسية التي أحاطت بالذكر الحكيم ومأثور القول وصافيات الحكيم التي كان يتداولها الخطاطون، فاكتسب الخط ما يمكن أن نسميه "جلال المعنى"

و"جمال المبنى"، فتشربت حروفه تلك المعاني في جلالها، حتى عد النص المكتوب جزءا من المنطق الجمالي للخط العربى، لأن الكثير من الجانب التذوقي فيه يعتمد على جمال المعاني المدركة الذي يثيرها النص، وهو دون شك أحد الركائز المهمة التي يوليها الخطاط عناية كبيرة، عندما ينتقي الآية القرآنية أو النص انتقاء لدلالته المفاهيمية أو لسحر العلاقات القائمة بين حروفه في تكوينها وإيقاعها وتشكيلها، فهل تقف كل هذه السمات كمحددات لا تتيح لغير الخطاطين الولوج في هذا العالم الساحر المقدس.

إن بناء الثوابت الشكلية التي توزعت على محور الزمان والمكان في الحروف العربية والتي أسست على سلم إحالات داخلية في قوانينها، شكلت نسقا فكريا مع طبيعة الخطاط العربي المسلم، وكانت اللوحة الخطية تشكل بنية خطاب متماسك داخل سمفونية الفن الإسلامى.

الفصل الثالث

أنواع وأشكال الخط العربي

أصالة الخط العربي

يتضح مفهوم الأصالة في الفكر العربي من خلال المحافظة على تلك التقاليد المتجذرة في عمق السلوك والفكر والقيم، مما يجعلها عاملا مؤثرا وموروثا في آن واحد، أي أنه ممتد من الماضي إلى المستقبل ومرورا بالحاضر.

وهذا ما يؤكد حفاظ الخط العربي على تقاليده الفنية في قواعده وأصوله وجمالياته، وكذلك حرص الخطاطين على المحافظة عليه من خلال إتقانه وتعليم قواعده إلى النشء الجديد.

إشكالية الإبداع والإتقان:

إن صفة الإتقان أو الأخلاص أو الإجادة ذات أهميةفي الفكر الإسلامين سواء في علاقته مع الخالق أو مع مجتمعة، كما أن هذه الصفة انعكست على كل ما أنتجه الفنان المسلم والإتقان غاية كبرى للفنان المسلم، ومرحلة يسعى من خلالها للوصول إلى

الكمال في إنجازه الفني، وقول الإمام الغزالي يجسد هذه الفكرة في قوله: (جمال الشيء في كماله)، والخطاط يسعى طيلة حياته إلى تحقيق هذا الهدف ولا يهدف إلى ابتداع أو إضافة شيء جديد للخط العربي، وهذا ما يجعلنا نؤكد أنه ليس بمقدور أي خطاط إضافة نوع جديد من الخط العربي، كما أنه ليس بإمكان خطاط حذف الخطوط العربية، وكأن الخطاط يريد من خلال إتقانه التوافق التام وإرضاء الذوق الجمعي العام، وليس ذوقه الفردي الخاص، أما الإبداع في الفن العربي فيتجسد من ابتكار أشياء جديدة لا نظير لها، ولا يتمكن الفنان من ذلك إلا من خلال عملية إلغاء الماضي والانسلاخ عنه والبحث عن صورة ذهنية، تناقض الواقع وتعلن تمردها عليه وتفردها الذاتي في رسم ملامح تلك الصورة من خلال إعادة ترتيب عناصر الحياة وفق رؤيته الداخلية الذاتية.

المحاكاة واللامحاكاة :

والمنهج الذي يتبعه الخط العربي والفن الإسلامي عموما هو اللامحاكاة، وعدم تكرار صور الطبيعة وتقليدها، والقيم الجمالية في الخط العربي لا ترتبط بصور مادية في الحياة قابلة للزوال، لأنها صورة مؤقتة أو مرتبطة بظروف حياتية تبدأ وتنتهى، بل يعتمد جماليات مطلقة ممتدة في الزمان، حيث الكتابة أعلى

مراحل التعبير الإنساني في الفكر المجرد، ولهذا السبب فإن الخط العربي لا يتأثر بالمتغيرات المادية وزوالها، لأنه لم يستمد معاييره منها وليس تقليدا لها.

الخط العربي علم وفن

الخط العربي علم لأن الخطاط يعتمد على علم الهندسة وحساب المثلثات والدوائر وعلم الحساب، وجميع اللوحات القيمة يعمل لها رسم هندسي قبل تنفيذها على الطبيعة، وتعمل لها مقاييس ونسب مدروسة تماما.

كما يفعل المهندس المعماري قبل أن يبني العمارة الضخمة، ويستوي في ذلك إذا كان الرسم ضخما يملأ قبة كبيرة في سقف مسجد، ويكون الفنان دقيقا كمن يكتب القرآن كله على قشرة بيض أو يكتب سورة كاملة على حبة قمح.

أما كون الخط العربي فنا، فلأن الخطاط لا يكتب مجرد كتابة تؤدي الوظيفة والغرض، ولكنه يضع روحه وخياله وفنه في كل حرف يخطه بيده، وإذا كان الإسلام قد كره رسم الأشخاص، فقد شجع على رسم الكلمات وإحسان الخط، ومن

هنا فقد وضع الفنان المسلم كل طاقاته الفنية وعبقريته في إظهار الكلمات بطريقة تعبر عن مشاعره، ولذا فإن كبار الخطاطين المسلمين لا يقلون أهمية عن كبار الرسامين في أوروبا أمثال ليوناردو وروفائيل وبيكاسو، ورغم أنهم أقل شهرة من هؤلاء الرسامين، لكن فنهم أصعب من فن الرسم لأنه فن تجريدي بحت، ومن المتفق عليه أن الدوائر في الفن التشكيلي تمثل قمة التوازن، وصحة الزوايا والكمال، وزيادة في التعبير فقد أضاف المسلمون إلى الخط العربي الكثير من الحليات والنقش الذي يساير معاني الكلمات ويزيد قوة التعبير، والفنان المسلم الأصيل يرى في كل حرف عربي صورة مرئية، تتناسب مع الحرف ذاته ومع الكلمة التي يكونها، وقد لا يكتفي الفنان بصورة الحرف المجرد، فيضيف إليه حلية أو نقشا، بحيث تظهر لوحاته في النهاية معبرة عن المعنى الذي يقصده، وإذا كانت الكتابة على حائط قصر إسلامى، فإن الفنان يجعلها في صورة مبهجة ومشرقة، وإذا كانت في مسجد أعطاها صورة من التسامي والروحانية، وإذا كانت على قبر أوضريح يعطيها مسحة من الحزن والوقار.

وفن الخط العربي يعتبر من أكثر الفنون تنوعا في أشكاله وأنواعه، فالمراجع والمصادر التاريخية زاخرة بأسماء كثيرة لأنواع مختلفة من أنواع الخط العربي، كما يعتبر في نفس الوقت من

أصعب الفنون لما يحتاج إليه من مهارة عالية وحس فني خاص في مقابل بساطة أدواته التي قد لا توحي لأحد عند الوهلة الأولى أنه يمكن لفنان الخط العربي أن ينتج بواسطتها تحفة فنية تسلب الألباب، وتجعلنا نقف أمامها مندهشين لقدرة هذا الفنان العجيبة الذي، ومن خلال حروف مجردة وبواسطة عود من القصب وحبر وورق، أن ينقلنا إلى عالم من الجمال الساحر والإبداع الآسر، وللخط العربي فنه وأدواته وطريقة تعلمه وما يتطلبه من جهد وصبر ومثابرة، نستطيع أن نتفهم سر اهتمام الكثيرين من المستشرقين والباحثين وعلماء التاريخ والآثار بهذا الفن واعتبارهم إياه أنبل الفنون.

أنواع الخط العربي

تعددت أنواع الخط العربي وتشعبت إلى درجة قد يصعب علينا حصرها في هذا المقام، فهناك أنواع اندثرت مثل المسلسل والحواشي وغبار الحلية، وتطورت، وتبدل اسمها مثل خط الرقاع الذي أصبح يسمى الآن خط الإجازة بعد مروره بمراحل تطور، وأنواع أخرى تشعبت وتفرعت على شعب وفروع مثل الخط الكوفي.

وظهر الخط العربي الشمالي أو خط الجزم وهو الخط الشائع المتصل خلافا للخط المسندي الحميري الذي كان منتشرا في جنوب الجزيرة العربية في القرن الرابع الميلادي من خلال تأثير الخط النبطي الذي نشأ بدوره من نمط الكتابة الآرامية.

ولا تزال بعض الحروف العربية تستعمل أسماء بعض الحروف النبطية مثل الألف والواو والميم والنون مع بعض الحروف التي

ترسم بنفس الطريقة مثل إدخال هذا الخط في قبائل مكه قبل مجيء الإسلام.

١- **الخط الكوفى**: سمي بذلك لأن هذا الخط ابتكر في مدينة الكوفة و لم يكن له وجود قبلها.

٢- **خط النسخ**: (**الخط النسخي**): وقد سمي بعدة تسميات منها البديع، المقور، المدور، وسمي بهذا الاسم لاستخداماته في المراسلات والمعاملات التجارية واستنساخ الكتب، ويعتبر خط النسخ من أقرب الخطوط إلى خط الثلث بل نستطيع أن نقول: إنه من فروع قلم الثلث، ولكنه أكثر قاعدية وأقل صعوبة، وهو لنسخ القرآن الكريم، وأصبح خط أحرف الطباعة وهو خط جميل، نسخت به الكتب الكثيرة من مخطوطاتنا العربية ويحتمل التشكيل، ولكن أقل مما امتاز به خط الثلث، وقد امتاز هذا الخط في خطوط القرآن الكريم، إذ نجد أكثر المصاحف بهذا الخط الواضح في حروفه وقراءته، كما أن الحكم والأمثال واللوحات في المساجد والمتاحف كتبت به.

٣- **خط الثلث**: وهو من أشهر أنواع الخط النسخي وسمي بهذا الاسم، لأنه يكتب بقلم يقط محرفا، وهو من أصعب الخطوط العربية من حيث القواعد والموازيين والقدرة على الإنجاز، ويعتبر خط الثلث من أجمل الخطوط العربية وأصعبها كتابة، كما أنه

أصل الخطوط العربية والميزان الذي يوزن به إبداع الخطاط ولا يعتبر الخطاط فنانا ما لم يتقن خط الثلث، فمن أتقنه يكتب غيره بسهولة ويسر، ومن لم يتقنه لا يعد بغيره خطاطا مهما أجاد، وقد يتساهل الخطاطون والنقاد في قواعد كتابة أي نوع من الخطوط، إلا أنهم أكثر محاسبة وأشد تركيزا على الالتزام في القاعدة في هذا الخط، لأنه الأكثر صعوبة من حيث القاعدة والضبط.

وقد تطور خط الثلث عبر التاريخ كما كان عليه في الأصل الأموي (الطومار) فابتكر منه:

خط المخفق.

خط الريحاني.

خط التوقيع.

خط المسلسل.

وخط المسلسل هو شكل من أشكال خط الثلث تكون فيه الكلمات مرتبطة الواحدة بالأخرى، فلا يوجد فراغات بين الكلمات إلا ما ندر، لذا سمي بالمسلسل لشبهه الكبير بالسلس.

٤- الخط الديواني او الهمايوني: وقد جاءت تسميته نسبة إلى صدوره في الديوان.

السلطاني للحكومةالعثمانية،فجمع الأوامر الملكية والإنعامات والفرمانات التركية سابقا لا تكتب إلا به، ويعتبر الخط الديواني

من الخطوط الجميلة، ولذلك اختاره الخطاطون في دواوين الملوك والخلفاء والرؤساء في المراسلات الداخلية والخارجية، كما استعمله الخطاطون للبطاقات الشخصية والمستندات والشهادات والمعايدات ولوحات التحف الفنية والنحاسية وغيرها ولا يحتمل هذا الخط التشكيل، وله ميزة باستقامة سطوره من الأسفل.

وقد استطاع الخطاطون أن يبتكروا من هذا الخط خطوطا أخرى منها:

- **الخط الديواني المترابط**: وأطلق على هذا التشابك في هذا الخط الحروف والكلمات، وقد أبدع في هذا الخط الخطاط المصري (غزلان)، فكتب فيه لوحات رائعة خط (الخط الغزلاني) لبراعته فيه.

- الخط الديواني الجلي: ابتكر هذا الخط العثمانيون وبرع فيه الخطاط (شهلان باشا)، وسمي "بجلي اليواني"، لوضوحه وجلاء حروفه وبيانها، وقد كتبت فيه المراسيم الملكية (الفرمانات) والرسائل الموجهة إلى الدولة الأجنبية.

- **خط الطغراء**: وهي كتابة جميلة صغيرة بخط الثلث تعارف عليها العام والخاص في فترة السلاطين العثمانية كعلامة سلطانية أوشارة ملكية على غرار شعار الدولة اليوم تكتب فيها الأوامر السلطانية أو على النقود الإسلامية أو الطوابع البريدية.

- **خط الإجازة:** وسمي أيضا بخط التوقيع، وكان يستخدم لكتابة الإجازة التي تمنح للمتفوقين في الخط عند بلوغه الذروة في فن الخط، ويعتبر خط الإجازة مزيجا من خط الثلث والنسخ فهو أصلهما أوهما أصله على الأصح، وقد سمي بخط الإجازة لتجوز الخطاط في الجمع بينهما، وقد كان العلماء يكتبون به الإجازات العلمية، ويستعمل هذا الخط في الأغراض التي يستعمل فيها خط الثلث، كما أنه يحتمل التشكيل كخط الثلث أيضا.

- **خط الفارسي (التعليق)**: شاع هذا النوع من الخط في بلاد فارس، وكان من لا يتقنه لا يعد خطاطا وسمي خط التعليق وهو خط جميل تمتاز حروفه بالدقة والامتداد، كما يمتاز بسهولته ووضوحه وانعدام التعقيد فيه ولا يحتمل التشكيل رغم اختلافه مع خط الرقعه واخترعوا منه خطوطا أخرى مأخوذة عنه أو هي إن صح التعبير امتداد له.

فمن تلك الخطوط

- **خط الشكسته:** اخترعوه من خطي التعليق والديوانى، وفي هذا الخط شيء من صعوبة القراءة، فبقي بسبب ذلك محصورا في إيران ولم يكتب به أحد من خطاطي العرب أو ينتشر بينهم.
- **الخط الفارسي المتناظر (المتعاكس)**: كتبوا به الآيات والأشعار والحكم المتناظرة في الكتابة، بحيث ينطبق آخر حرف مع الكلمه

الأولى مع آخر حرف في الكلمة الأخيرة، وكأنهم يطوون الصفحة من الوسط ويطبعونها على يسارها ويسمي (خط المرأة الفارسى).

● **الخط الفارسي المختزل:** كتب به الخطاطون الإيرانيون اللوحات التي تتشابه حروف كلماتها، بحيث يقرأ الحرف الواحد بأكثر من كلمة، ويقوم بأكثر من دوره في كتابة الحروف الأخرى، ويكتب عوضا عنها، وفي هذا الخط صعوبة كبيرة للخطاط والقارئ على السواء.

٥- **خط الرقعة:** وسمي بهذا الاسم نسبة إلى قطعة الورق التي يكتب عليها، وهو أسهل الخطوط قراءة وكتابة، بالإضافة أنه أصل الخطوط العربية، ويمتاز بجماله واستقامته وبعده عن التعقيد على النقطة، فهو يكتب أو يرسم بالقلم بشكل معروف، ويستعمل خط الرقعة في كتابة عناوين الكتب والصحف اليومية والمجلات، ومن ميزة هذا الخط أن الخطاطين حافظوا عليه فلم يشتقوا منه خطوطا أخرى.

٦- **الخط المغربى:** يعتبر الخط المغربي من الخطوط المحلية في المغرب إذ لم يستسغه خطاطو الشام ومصر والعراق وفارس وقد حل هذا الخط محل الخط الكوفي الذي كان سائدا في بغداد حتى القرن الخامس الهجري، وهذا الخط يحمل أسماء أخرى كالخط القرطبي والخط الأندلسي، غير أن شهرته بالخط العربي أعم ويمتاز باستدارة حروفه استدارة كبيرة، وقد تطور هذا الخط بعد أن ازدهرت

الأندلسي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، فطغى جمال الخط المغربي على سائر الخطوط الأخرى وانتعش في القيروان مع انتعاشه في الأندلس، لوثوق الروابط بين المغرب العربي والأندلس، وبعد القرن التاسع الهجري هبط الخط البياني لهذا الخط في تونس وكاد يغيب جماله فيها، وإن لم تغب تلك الزخارف الجميلة التي كانت تزين المصاحف والكتب الأخرى وخاصة الطبية، وقد قلت العناية بالخط المغربي في المصاحف التي كتبت في غرناطة وفاس في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

ومن أنواعه:

- **كوفي مغربي**:

وهو خط هندسي بديع يتميز بخطوط مستقيمة وزوايا حادة، وهو الأصل الذي تطورت عنه أنواع الخط المغرب الأخرى.

- **الخط المبسوط**:

عرف بأحرفه الواطئة المبسوطة، ويتميز بالوضوح وسهولة القراءة وهي أعلى مراتب الخط المغربي وأكثرها راحة للعين، ويستعمل في كتابة المصاحف وكتب الأدعية والصلوات.

- **خط الثلث المغربي**:

اقتبس خط الثلث المغربي من الثلث المشرقي ويمتاز بليونته وانسياب حروفه، وإمكانياته غير المحدودة في التشكيل وفي تطويع

صدر الحروف تبعا لمعايير جمالية وبصرية، يستعمل للتزيين في الفنون المعمارية، مثل زخرفة المساجد والأضرحة.

- خط المسند:

يعرف الخط المسند بالخط الزمامي، وأيضا بخط العدول وينحدر من الخط المجوهر وكان يستعمل في كتابة الوثائق العدلية والعقود وهو خط سريع يستعمل في التقاييد الشخصية، ولا يستعمل إلا نادرا في الكتب العلمية، ويعد من أصعب الخطوط المغربية في القراءة.

- الخط المجوهر:

تمتاز حروف الخط المجوهر بالصغر والتقارب، وتفرع هذا الخط عن خط المبسوط في حدود القرن السادس الهجري وهو الأكثر استعمالا في الحياة العامة وخصوصا في الرسائل والظهائر السلطانية، وفي جل المؤلفات المخطوطة، ويستعمل في استنساخ بعض الوثائق المهمة.

الفصل الرابع

خصائص الخط العربي

سحر الخط العربي

مهما اختلفت الحضارات وتنوعت أساليب الكتابة لدى الجنس البشرى، تبقى الكتابة العربية وفنون الخط العربى، محط أنظار الباحثين والمفكرين بشكل عام ومتذوقي الفن الجميل بشكل خاص.

فنحن جميعا نقف مكتوفي الأيدي وقصيري النظر مقارنة بالمدة الزمنية القصيرة التي نعيشها على هذا الكوكب، وأمام عمر من التاريخ تعاقبت عليه الأجيال فشيدت الحضارات، وبنت معالم خالدة طوتها السنون، فلم يبق لها إلا الاسم تاركا خلفها جميع جوانب الحياة في أدغال الزمن الغابر، إلا الكتابة العربية بقت كماء الياقوت تسبق الزمن، وتتكئ على أكتاف بناة الحضارات، ليستعينوا بها في كتابة تاريخهم بين أحضان التراث.

وعلى الرغم من التطور الكبير الذي حصل للحرف العربي في الفن التشكيلى، سواء باستخدامه الرمزي أو التعبيرى، فإنه لم يزل يملك سحره داخل الكلمة والجملة، ولم يزل يغري الكثير من

الفنانين والخطاطين بالعمل من داخله، للوصول إلى لمحات فنية، تمتع المشاهد وتغني رؤيته البصرية.

وإذا كان الخطاطون منذ أيام القلم المسند وقلم حران وحتى اليوم أبدعوا الشيء الجميل، إلا أن الخطاطين المعاصرين استطاعوا أن يقدموا ما هو أكثر إتقانا وأعمق حضورا، وذلك بفضل التطويرات الكثيرة التي أدخلوها عليه، والكتابة هي تعبير ليس عن طريق اللسان، وإنما عن طريق اليد أحيانا تعبر من خلال الإشارة، وهو جهد خاص له قواعد، بحيث تكون الرسوم المكتوبة دالة من خلال تركيبها على بعض المعاني، وكلما ارتقت صناعة الكتابة، كانت أكثر دقة في التعبير عما يجيش في النفس من أفكار وعواطف وانفعالات، واختراع الإنسان لصناعة الكتابة هي تقدم فكري وتفوق عقلي، فالإنسان استطاع أن يخترع أسلوبا للتعبير، والكتابة هي رسوم وأشكال اخترعها الإنسان، وجعل لكل رسم منها دلالة خاصة، وتؤدي تلك الرسوم في حالة تركيبها معاني دقيقة قد تتجاوز حدود الكلمات الدالة على معاني حركية، وقد تفيد أحيانا أفكارا دقيقة، وهي وسيلة الإنسان إلى المعرفة والكتابة

في جميع أحوالها، بل هي مظهر من مظاهر الحضارة، ولا يمكن تصور نشأتها إلا في ظل حضارة الإنسان وتطوره.

تتبع تاريخ الكتابة:

عند تتبع تاريخ الكتابة لوجدنا أن ذلك التاريخ ليس هو تاريخ الإنسان، وإنما هو تاريخ حضارة الإنسان، وليست الكتابة مجرد رسم لشكل من أشكال الحروف، إذ إن ذلك قد يتم التدريب عليه لبعض الحيوانات، وإنما هي أكثر تعقيدا من مجرد الرسم المادي لشكل الحرف، فهي في الدرجة الأولى رسم للشكل يعتمد على الترابط العاقل أو المنظم بين تلك الأشكال، ولو اكتفينا بمجرد الرسم لكانت الكتابة فاقدة معناها غير مؤدية الغرض منها.

أغراض الكتابة:

إن من أهم أغراض الكتابة تأدية الأغراض المطلوبة منها عن طريق ربط الرسوم والأشكال بالمعاني الدالة عليها، فالمعنى في حد ذاته فكرة ضمنية تراود الإنسان وتتردد في صدره، ولا يجد وسيلة لإبراز تلك الفكرة إلا عن طريق اللسان أو عن طريق الكتابة، أوعن طريق الإشارة، والإشارة وسيلة قاصرة، لأنها لا تعبر عن طريق المعاني البسيطة في حالات القبول أو الرفض، أو فيما هو في

مستوى ذلك من الأفكار المبسطة، واللسان هو الوسيلة الأوضح والأقوى للتعبير، ومن هنا كانت الحاجة إلى اللغة كوسيلة للتعبير عن الأفكار، غير أن اللسان قد يكون قاصرا في بعض المواطن ليس عن أداء المعنى، وإنما عن استمرارية المعنى المطلوب، ولهذا فإن الكتابة تأخذ موقعها كوسيلة لنقل الأفكار وحمايتها واستمرارية عطائها، والكتابة أكثر صعوبة من الكلام، لأن الكلام أقل جهدا من الكتابة، ويتعلمه الإنسان عن طريق التلقين التلقائي في الطفولة، أما الكتابة فتحتاج إلى جهد مضاعف، لأنها عملية معقدة ودقيقة تحتاج إلى تعليم رسوم وأشكال الحروف والأرقام أولا، ثم إلى تعليم دلالات تلك الرسوم والأشكال على المعاني ثانيا، ثم إلى ربط المفردات اللغوية لتكوين معان معقدة ثالثا، وهذه المراحل شاقة وتحتاج إلى مران وتعلم وتكرار إلى أن يتمكن الإنسان من امتلاك ناصية الكتابة وتكوين ملكتها.

الارتباط والتواصل في الخط العربي

وجود الحرف في كيانات أخرى مثله، يحتم علينا أن نعرف كيف تتواصل الحروف فيما بينها، لتشكل كلمة لها مستقر في العقل والقلب، وتأمل الحروف ينبئنا عن الارتباط الوثيق الذي تكنه الحروف لبعضها البعض.

فكل حرف يعدل في خصائصه وشكله في عملية الارتباط هذه، فحرف اللام هو حرف الالف زائد الحضن النوني الذي يعبر كما قلنا عن الضم، إلا أن ارتباط اللام بالأحرف الأخرى يجعله يحب حضنه هذا ويعدله بما يتماشي مع رغبة واحتياجات الحرف التالي، وكأنه قد وجد رفيقه الذي أرضى تلك الرغبة في الضم، فسحب ما يعبر عنها بما حقق التواصل والارتباط، وكأنه فرح بلقائه، كذلك نجد اللام في وسط الكلمة تمد إلى الحرفين الموجودين على جنبيها، حتى تحقق الارتباط، ونفس الشيء يمكن

قوله بالنسبة لكل الحروف، حيث تقوم بتعديل كياناتها دون تحريف، وهذا بغرض الارتباط بالأحرف الأخرى، بما يزيد من الجمالية والروعة والتناسق، فلو تأملنا كيف يعدل الهاء وجوده في نهاية الكلمة فستنبهر بما يفعله، خاصة حين يقوم بإغلاق نفسه في عملية أشبه ما تكون بالخلود إلى النوم ضاما ذاته إلى الوراء، وكأنه حي يحس ويشعر كما أن لها ميزة ثقافية، تتجلى أكثر في الارتباط الوثيق بين المجتمعات العربية، فهي كيانات متآلفة لا تسطيع الحياة منعزلة في صورة فردية، كما هي الحال في المجتمعات الغربية، حيث نجد الخط قائما كأحرف فردية لا تعدل من خصائصها إذا ما ارتبطت مع غيرها.

الانتظام في الخط العربي

يستشعر المتلقي في الفنون الإسلامية أن جمالها هو ناتج للإحساس بالنظام في عناصرها وأسسها، وفي وحدة متوافقة رغم تنوعها، وقد اكتسب الفنان المسلم هذا النظام في كل عباداته وحقوقه وواجباته.

وأيقن بأنه جزء من هذا النظام المتوازن القائم مع الله عز وجل ومع المجتمع، وأنه التسلسل المنطقي الذي يعتمد الفكر أساسا للجمال وتناسقه، وهذا الانتظام يجعل المتلقي يتوقع باطمئنان تسلسل العناصر والمفرادات والمعاني والدلالات في الخط العربي، بينما لا يتوقع المتلقي عناصر اللوحة الغربية، بل يجد صعوبة كبيرة في تأويلها أو فهمها أو تفسيرها، كما أن نظام هذه اللوحة لا يستمد كامل عناصرها من البيئة والمحيط الذي يدركه الإنسان ويعيش فيه، وإنما من ذلك الاضطراب الداخلي الذي يقع

الفنان الغربي تحت وطأته وتأثيراته، فينعكس ذلك في الخطوط والألوان والحركة وكافة العلاقات الناتجه عنها.

ولا شك أن الفنان المسلم والخطاط العربي يرفع كل الهموم والظنون والهواجس، ويتوحد مع عالم مستقر في ظاهره وباطنه، ويستشعر الأمان في توازنه مع محيطه وبيئته، ويعلم أن العمل عبادة، وبالتالي فإن الخط العربي هو نتاج لحالة من الطمأنينة والسكون والتوازن، الذي يتوحد فيه الفنان المسلم مع المعاني المقدسة للذكر الحكيم.

كما يغيب الفنان المسلم في عمله الفنى، وكذلك الخطاط فلا تكاد ترى ما يميز أسلوبه الذاتي أو طابعه الخاص، وغياب الذات هنا إنما دلالة على انصهار الفنان في مجتمعه، لأجل تقدي مأفضل القيم الجمالية التي تمثل الذائقة العامة، ولأجل هذا فإننا نجد فنا إسلاميا، ولكننا لا نجد فنانا مسلما، أو بمعنى آخر تغيب ذات الفنان المسلم في عمله الفنى.

إمكانيات الخط العربي

يتمتع الخط العربي بإمكانيات تشكيلية لا نهائية، فحروفه مطاوعة للعقل ومطاوعة ليد الخطاط الحاذق إلى أبعد الحدود، لما يتميز به من المد والقصر والأرداف والإرسال والقطع والرجوع والجمع، مما لا يتوفر في أي من الخطوط في اللغات الأخرى.

ولذلك فهو ينتمي إلى العالمية بكل قوة ودراية وشمولية، وهو فن يجمع الليونة والصلابة في تناغم مذهل، وتتجلى فيه قوة القلم وجودة المداد المستمدة من النفحات الروحانية التي تهيمن على الخطاط المبدع في لحظة إبداع فلسفي لا تكرر نفسها، فمن ساحة الفكر المخزون يقفز نص جذاب أو حكمة مأثورة أو أية كريمة، يرافقه تخيل مبدئي لنوع الخط الذى ينبغي أن يكتب به، ومع أعمال الفكر وإجهاد القريحة تبدأ ملامح التكوين الخطى..

تظهر رويدا للروح ثم للعين ثم تنفذ اليد الإبداع الحقيقى، كما أن الرابطة الحميمية التي تجمع مثلث العقل والروح والعين، بدءا بالتوافق المنضبط في النسب المطلوبة بين الحروف، والتناغم المألوف بين الحركات والانطلاقة الوثابة لبعض الكلمات، لتنصهر في علاقة واضحة بين نوع الخط ومعنى الكلام المخطوط في بناء لوحة قادرة على التعايش مع الوسط الفني زمنا طويلا.

جماليات الخط العربي

ابتدأ الخط العربي من خلال علاقه (سيمولوجية) دلائلية أورمزية متمثلة بالبيان الإلهي في القرآن الكريم عند توضيحه بالكتابة، ومن هنا تطلب كتابة فاضلة بالخط المنسوب، أي الخاضع لقواعد الخط الجميل.

والخط العربي ملكة تنضبط بها حركة الأنامل بالقلم عن قواعد مخصوصة، وهذه الملكة تتربى بالتعليم وتقوى بالتمرين والاجتهاد، وليس كل إنسان قابلا لأن يكون خطاطا، وإنما البعض دون البعض، حيث إنه من أدق الأشكال الهندسية، وحسن الخط كامن في بعض الأفراد كمون النار في الحجر لما وهبه الله تعالى من الاستعداد الفطرى، فإذا ما اشتغل به نبغ نبوغا عظيما من غير عناء كبير، أما من لم يكن فيه هذا الاستعداد الفطري لتحسينه فلا يرجى له النبوغ والوصول إلى غايته مهما بذل من

الجهد، وصرف فيه من الوقت وقد يقال فيه قسطا لا بأس به إذ لكل مجتهد نصيب، ولكن نصيب هذا لا يرفعه إلى الدرجة التي يصح أن يطلق عليه لفظ خطاط، وهو نص في مرآة يعكس الحلم الخالص، بانتزاع اللغة من حقيقتها البشرية وتقديمها في شكل فنى، وبشكل أكثر تحديا فإن فن الخط هو الفن الذي يعتبر نفسه متوفرا على هذه الصفة، وقائما على بنية متميزة وقواعد هندسية وزخرفية، وعندما نقول "فن قائم الذات" فإننا نعني أنه يتبع في تخطيطه نظرية في اللغة وفي الكتابة، وقبل كل شيء فإن هذا الفني دخل في نطاق البنية اللسانية، ويشكل معجما ثانيا للرموز، منحدرا من اللغة إلا أنه يلعب بها ويضاعفها عن طريق حركة مرئية، ومن ثم فنحن نستبعد جميع التعريفات العائمة التي تطلق فن الرسم حتى يلتقى أحيانا بمنطلقات فن الخط، فإن هذين الفنيين يختلفان في طريقة إبراز الإشارة المستمدة من الحروف، وكذلك في طريقة إضفاء الحياة عليها، كما أن الخط فن رائع ملتصق باللغة العربية غني بالبهاء والرواء، وقد يراه بعضهم أنه باب من أبواب الرسم، ولا شك في أنه له صلة بالرسم، ولكنه باب تميز عن أي باب من أبواب الرسم الأخرى، متميز بوظيفته وطبيعته وارتباطه بأشرف لغة وأكرم أدب، وكأنه أصبح بهذا الارتباط جزءا من الأدب، وإذ لم ير بعضهم أنه شكل من أشكال الأدب فهو باب

من أبواب اللغة العربية خاص باللغة ذاتها، وقد قالوا إن الخط توفيق من عند الله جل وعلا واستفاد البشر لتركيب حروفه عن طريق العقل البشرى، وقد فسر هذه النظرية عمر بن عتبة بقوله: "العقل عقلان، عقل تفرد الله بصنعه، وهو الأصل وعقل سيتفيد المرء بأدبه، وهو الفرع فإذا اجتمعا قوي كل منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة للبصر، واجتماع العقلين ألف عند الناس، وأقرب للواقع فإنهم يتبنون دائما تقوية العقل الموهوب بما يكتسب من ممارسة واستفادة من تجربة وتكرار حصل علم الكتابة الذي نسميه الخط،كما ويعد الخط الجانب الذي يعبر عن الترابط القوي في مختلف الأقطار الإسلامية، وبين المهتمين بالخط العربي لا باعتباره وسيلة تواصل وتفاهم فحسب، بل لكونه فنا برزت فيه نخبة من الخطاطين المسلمين على غيرها، بما لا تزال بعض خزائن الكتب تزدان به من روائع آثارهم، بما أضفوه عليه من سمات الإبداع والجمال، وما رسموه له من قواعد ثابتة، حتى أصبح علما راسخ الأصول، مع اعتباره بما تتصف به من صور حروفه وهندسة تراكيبها من مرونة وتناسب من الفنون التي تفسح للأخيلة المبدعة وللأذواق السليمة أرحب المجالات للإبداع والإمتاع.



الخط العربي والتكنولوجيا

عندما تكونت الكتابة تشكلت ذاكرة جديدة للجنس البشري، وحصلت طفرة هائلة للبشرية، بدأت بالتراكم والتكديس والتفاعل، وبدأت بذور نهضة الحضارات حيث إن الكتابة بدأت بصياغة البشرية صياغة جديدة، هذه المرحلة من اكتشاف الكتابة تعتبر أخطر تطور في تاريخ البشرية.

لأن اكتشاف الحرف كان معناه تحويل النطق إلى كتابة تعبر عما تريد وتنقله إلى الأجيال القادمة، ومنذ أن خرجت الحروف الرقمية على الساحة العامة، واستعمرت في ذاكرة الجيل الجديد الذي بدأ بتناول تلك المواد الجامدة في قولبة جديدة للقضاء على فنون الخط العربي وتهميشها ووضعها في زاوية مظلمة بعيدة عن الضوء، أذنت شمس الإبداع من ذاكرتنا بالرحيل إلى غير رجعة، فقد عملت تلك الشركات بدقة فائقة في تغييب العنصر الجمالي

للخط العربى، من خلال الكم الهائل لنماذج خطية عديدة، بدأت في التعامل المباشر معها، فأوصدت جميع الأبواب للخط العربي لطيها وعدم التعامل معها، فمن الإعلان العريض المتناسق الذي بدأ بالقضاء على الكتابة اليدوية إلى القلم الذي بدأ كتابته ينحسر استعمالاتها الا نادرا، وان بعض الشوارع التي في مدننا الكبيرة والهامة قد انقرضت منها تلك الكتابة اليدوية الإبداعية السلسة التي كانت تنم عن تطور هائل في إمكانيات وجماليات الخط العربى، مع العلم أن بعض المدن التراثية العريقة مازالت تفتخر بالكتابة اليدوية على جدرانها كالجامع الأموي في دمشق وحلب وقصر الحمراء في الأندلس، وآثار سمرقند وطهران وتونس والمغرب وعمائر بغداد ومساجد إستنابول وأصفهان وغيرها.

لقد حولت الثورة الرقمية معظم الخطاطين، ولا أقول جميعهم إلى تابعين لها وقابعين في أسوارها يتلقون تعليماتها بكل طواعية وتسليم، وذلك بعد أن غسلت أدمغتهم من الركائز الهامة لجوهر الخط العربى، واستوطنت بدلا عنها أشياؤها ومفرداتها التي بدأت في غزو ثقافة الفنون، وتحول الخطاط أيضا إلى عنصر تابع للحاسوب في جميع مستويات العمل الإعلانى، وبدأ في التوقف عن العمل لمجرد انقطاع التيار الكهربائى، أو حدوث عوارض

مرضية على مجريات الحاسوب بدلا أن يكون هو السيد ويكون الحاسب هو التابع.

لقد قضت ثورة المعلومات بكل إفرازها على الحرف العربى، بعد أن كان نواة لكل معلومة، لا أقول قضاء مبرما، لكنني أتحسر ألما على بوابات بعض المجلات التي تدعي الحفاظ على التراث، وتستعمل خطوطا من صناعة الكمبيوتر على غلافها، الأمر الذي ينفي عن تلك المطبوعة صيغتها التراثية وعنصرها الجمالي المتألق وكأن خط اليد أصبح مقصورا في محراب هذه الاختراعات.

ويثير الخط العربي تساؤلات عديدة كما لم يثيره أي فن من الفنون، وذلك لشموله جوانب عديدة من حياة الإنسان، وميادين الخط العربي مختلفة ذات تماس مباشر باحتياجاته الجمالية والوظيفية، فهو لا يخص ذوي الشأن من الخطاطين، بل تعدى ذلك إلى كونه أهم الفنون التي تعكس تطور الفكر الإنساني في الدراسات الإنتربولوجيةالحديثة، فالخط العربي يتضمن قدرة فائقة على احتمال خصائص الفرد ومميزاته، أو أبعاده النفسية والفكرية والعاطفية، باعتباره الوسيلة المعرفية الراقية، المندمجة بالتفكير والعقلانية، والأكثر رهافة واستجابة وتأثيرا وتأثرا بالكون والذات الإنسانية معا، ومن هنا نشأت أساليب تحديد الخط وقراءته

واكتسبت أهمية خاصة في كثير من التخصصات والحقول كعلم النفس وعلم الجريمة وغيرها من العلوم.

والخط هو من ناحية أخرى هو حامل لأبعاد ثقافية واجتماعية وحضارية تشترك فيها الأمة والمجتمع كله، ذلك أن الخط ومع اختلاف كل فرد أو ذات نفسية في صياغته وتشكيلة، هناك جزء عميق وكبير متعارف عليه يمثل القيمة الكلية أوالفلسفة الكلية والمطلقة للمجتمع، وتكمن القيمة المعرفية للجهود الجبارة للخطاطين الأوائل، والذين مازالوا يقتفون أثرهم في توجههم العميق نحو إبراز ملامح علم الإبداع العربى، والسعى نحو تمييزه عن باقي العلوم التي ارتبط بها الخطاطون، يظلون ممثلين للثقافة العربية الإسلامية بكل تجلياتها الرائعة، كونهم الأداة الحاضنة للإبداع الثقافي من خلال القدرة على التمييز والعطاء، ومع أن التكنولوجيا الحديثة أصبحت تدخل في كل شيء من حولنا وأصبحنا في هذا العصر محاطين بها أينما كنا، إلا أننا لم نتمكن من الإفادة منها في ردم الهوة القائمة بين الإبداع اليدوي المرهف والجمهور المتلقي، وفي هذا الصدد يمكن اتخاذ خطوات عدة، تساعد إلى حد ما في رأب الصدع القائم وفي جذب الجمهور المتلقي نحو الإبداع اليدوى الكتابي للخط العربى، بعد أن وجد بدائل أضحت أفضل في نظره ترفيها له وتخفيفا من ضغط الواقع،

تضيف إلى هذه القيمة الصوتية قيمة فكرية وحضارية وأخلاقية وفلسفية.

فإذا أخذنا على سبيل المثال حرف (أ) كتعبير لصوت معين، فإن وقوفه واستناده على السطر عموديا ودون سائر الحروف، بالإضافة إلى وجوده الدائم والأبدي في مقدمة الكلمة، يضفي عليه خصائص وجدانية تنتمي إلى ثقافتنا، كأن يكون هو الدعامة الأساسية في بناء الأحرف كلها، فهناك علاقة تبادلية وثيقة بيننا وبين الخط فهو بحاجة إلينا، كما أننا بحاجة ماسة إليه، ومن هنا يعبر الحرف العربي عن تلك العلاقة الوثيقة بين الخطاط المبدع والمتلقي ككتلة جماعية قائمة على الرغبة في الآخر ومشاركته وجدانيا وعاطفيا وليس ماديا فقط، حيث يصعب أن نجد مفهوما للفردية في المجتمعات العربية والإسلامية، وهو ما عبر عنه الحرف أصدق تعبير.

إن هذه الخصائص التي يحملها الخط العربى، هي التي تجعلنا منبهرين ومبهوتين ومعلقين روحيا بلوحة لخطاط مقتدر، استطاع أن يدمج فيها سائر العناصر الثقافية والأخلاقية والفلسفية حتى مع صعوبة قراءة ما استطاع تشكيله، إذ إن لغة الاحاسيس لا تحتاج كثيرا إلى لغة العقل أو المنطق كي يساعدها في عملية التواصل مع الثقافة.

علاقة الزمن بالخط

منذ القدم كم من مثقف قارن بين حياة البدو الرحل وحياة سكان المدن، ومع كل الصفاء التي توحي به الصحراء، فإننا نعيش في المدن ومتطلباتها، وأن الصناعات الحديثة تفرض اختزال الزمن والاتجاه نحو السرعة، ومن يعيش في المدينة لن يعد يستطيع تحمل بطء الصحراء.

كانت خطوط الماضي وزخارفها توحي بأن الفنان أمضى زمنا طويلا لإنجازها، وإذا كان من الممكن للخطاط أن يأخذ الزمن الذي يريده ليمنحه للخط، فإن عصرنا الحالي لم يعد سهلا التركيز على الخط ضمن وقت طويل، ولن يسمح الوضع الاقتصادي للخطاط ومعيشته في المدينة باستغلال الوقت كالسابق، مما أدى إلى تضاؤل عدد الخطاطين، لذا لابد من طرق جديدة يفترض أن يبدعها الخطاطون أنفسهم، لمسايرة العصر.

زمن الخط الجميل

كان على الخطاط في الزمن السابق قيادة جسمه نحو الثبات واللاحركة، بهدف تكثيف الطاقة عبر التأمل والبطء في التمرين بالخط، ليوجه الخطاط كل اهتمامه.

وفي تركيز ذهني نحو منقار القلم - أي القصبة المبرية - فيبدو جسم الخطاط وكأنه تمثال جامد بقلب ينبض، وكان هذا التكثيف للطاقة الداخلية يصب في الحروف التي يخطها ويعطي الخط مظهرا ثريا، فتنبعث الحروف ومادة الحبر السوداء ذبذبات جمالية لعين المشاهد، إضافة لجمالية التكوين الهندسي والحكمة الآتية من العبارة.

إن قلة حضور هذا النوع من الخط بالمدينة العربية في عصرنا الحالى، يعود إلى التحولات الكبرى في الاقتصاد والثقافة، وفي وسائل الطباعة والنقل والاتصالات، وقد أسهمت الطباعة الإلكترونية السريعة في التقليل من الحاجة للخط اليدوى، كما أن

الطائرات والسيارات والتليفون والتليفزيون لا تسمح بهدوء يشابه هدوء الزمن الماضى، وبالتالي أصبح من الصعب التركيز الذهني العميق كأيام زمان، ويجب ألا ننسى أيضا الإهمال الحالي لهذه التجربة الفنية، وعدم التقييم الحقيقي لأهميتها من قبل أكثر المسئولين عن الثقافة، فتغير نمط الحياة في الزمن الحالي يتطلب من الخطاط التلاؤم مع هذه التيارات المعاصرة التي تهب على مدننا، فقد كان يحسب في القرن التاسع عشر عدد الخطاطين بالآلاف، بينما اليوم يحسبون بالعشرات.

من الذي قلل عدد الخطاطين؟ هل هو التطور الحضاري أم عدم مواصلة الخطاط مرافقة التطور؟ وبتعبير آخر هل السبب يعود إلى ابتكار وسائل حديثة للكتابة أو قلة التجديد من قبل الخطاط؟، فعلى الخطاط تطبيق ما يقوله المثل "عليك أن تتعلم الإبحار بدلا من أن تكافح ضد التيار"، فلابد من عمل خطوط تلائم عصرنا وعدم الاكتفاء بتكرار خطوط تنتمي إلى أجواء القرن التاسع عشر.

ان تقليد أجواء وجماليات القرن التاسع عشر من قبل خطاطي عصرنا الحالى، ومهما كانت هذه الجماليات راقية، فإنه يعني المراوحة بنفس المكان وعدم التقدم، ومهما كانت الخطوط الجديدة في زمننا الحالي خجولة وغير أكيدة، فإنها تحمل في نيتها

بذرة الرغبة في تخطي خطوط الماضى، وتدريجيا سوف يأتي منها الجديد الملائم لعصرنا المعاش الجديد الذي يتوافق مع حاضرنا، بينما الخطوط التي تمثل أجواء قديمة تكون في حالة انفصام مع الحياة.

والخطاط القديم في الزمن الماضي يخط ببطء ويفكر بسرعة، وكان الأستاذ يطلب من تلميذه أن يخمن سرعة الحركة ليده وحسب قدرته، أي بمدى اتساع تجربته وحسب التمرين الذي عمله،كي تكون رؤية الخط المطلوب واضحة في ذهنه،كقول الخطاط المعلم ابن الزهري: "قلة العجلة وإظهار القدرة في عرض الاسترسال، وإرسال اليد في طي الاقتدار"، والمراد هنا بكلمة "الاقتدار"، هو عدم التضحية عند الخط بالقيم الجمالية، والعمل بحسب تعاليم الخط التي تركها الأقدمون لنا والمتعارف عليها في زمن خطها، فنستنتج من قول ابن الزهري إنه يمكننا الإسراع في إمكانية إعطاء الخط تعبيرا واسعا مع المحافظة على جوهر القيم الجمالية، بينما يسخر الهمذاني في القرن الحادي عشر من خطاط أهمل هذه القيم الجمالية: "خط مجنون لا يدري ألف أم نون، وسطور فيها شطور، دبيب السرطان على الحيطان وألفاظ أخلاط، لا يدركها استنباط، ولا يقيمها ابقراط، هذيان المحموم وسوداء المهموم".



عملية الخلق الفني

حياة كل فنان تبدأ في رغبته في الإبداع، وهو يعرف جيدا أنه سيواجه صعوبات غير محتملة وعقبات متكررة، ولكن نجاح تجربته سيكون بمدى وعيه وتيقظه في مواجهة الحذر الذي يفرضه المجتمع.

والخطاط يملك ذاكرة ثرية، والذاكرة تعود إلى كل ما شاهده من الخطوط القديمة، وأنه سوف يأتي بعفوية بخط يعكس هذا العصر، عندما يشارك حدسه وإحساسه في عملية الخط فيكون آنذاك متوقفا على تركة الماضى، وهذه التركة تكون كقاعدة متينة وبنفس الوقت يتجاوز إبداع الماضى، ويتجه نظره بعيدا كل البعد نحو آفاق جديدة.

الشيء المهم هو أن ندرك أن الخط بسرعة لا يعني قط السهولة وكذلك أن التبسيط لأشكال الحروف في الخط ليس شيئا

يسيرا، المهم أن نعمل أولا على أن يكون الوليد الفني الجديد على أحسن ما يرام، وأن نمضي بقية الوقت في البحث والتدريب والتأمل، لأن السرعة يمكن أن تقودنا لمعرفة أخرى للإنسان وللحياة عبر العمل الفني، فالسرعة تقترب مما هو حسي وعفوي، وتحاول الابتعاد قدر الإمكان عما هو ذهني وعقلاني، فالعقلاني هو الأمس والإحساس والتأمل هو الغد، وعندما أقول التدريب على الخط لا أعني التدريب التقني فقط، بل أقصد أيضا تدريب الروح في تأمل الرياح والغيوم والجبال والأشجار والأزهار.

هل يمكننا إدراك المنتجات المعاصرة وتحسسها والتفاعل معها، كالسيارات والطائرات والصور المسرعة في التليفزيون، أن نبقى نعيش بنفس البطء القديم للخط وفلسفته العتيقة، كل الشعوب قد مرت سابقا بالمراحل البطيئة، ألم يمض الفنان ليوناردو دافنشي ثمان سنوات لإنجاز لوحة الجيوكندا، وميكائيل أنجلو ثلاث سنوات ليكمل نحت تمثال دافيد.

الابتكار في الماضي

في القرون الماضية كان الابتكار مستمرا، وفي كل مجالات الفن والأدب والمهن المتعددة، كنا نعمل كل ما نحتاجه للمعيشة اليومية.

ولكن اليوم نستورد أكثر ما نستعمله، وعدم الإنتاج في عصرنا أو قلته يفقر المخيلة الإبداعية داخل المجتمع، فالفن ليس جسما غربيا يمكن استيراده، إنه صدى لجوهر التفاعلات البشرية داخل المجتمع، وأن تمتلئ المتاحف بإنتاج الفنانين والمهنيين للزمن الماضى، فماذا سيضع أطفالنا في المتاحف من الأعمال الفنية للتعبير عن عصرنا الحالى.

الفصل الخامس

الخطاطون الرواد
في الماضي والحاضر



أوائل الكتبة من المسلمين

لقد سمي خط هؤلاء الأوائل بالخط الحجازي، وهو أصل خط النسخ، وقد كان من كتابة بعض أسرى النبي – صلى الله عليه وسلم – من أهل قريش في بدر، فاشترط على كل واحد منهم تعليم عشرة من صبيان المدينة.

فانتشرت الكتابة بين المسلمين، وحض النبي – صلى الله عليه وسلم – على تعليمهم، وكان من أشهر كتاب الصحابة – رضي الله عنهم – عمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعندما فتح المسلمون الممالك ونزلت جمهرة الكتاب منهم الكوفة عنوا بتجويد الخط العربي وهندسة أشكاله، حتى صار خط أهل الكوفة ممتازا بشكله عن الخط الحجازي، واستحق أن يسمى

باسم (الخط الكوفي)، وبه كانت تكتب المصاحف وتحلى القصور والمساجد وتسك النقود.

الخطاطون الأوائل:

ورد في كتاب (أبجد العلوم) لصاحبه صديق بن حسن القنوحي كلاما في علم الخط قال ابن إسحاق: "إن أول من كتب المصاحف في الصدر الأول، ويوصف بحسن الخط "خالد بن أبي الهياج"، وكان سعد بن أبي وقاص والى الكوفة أيام الخليفه عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - قد نصبه لكتابة المصاحف، وكان الخط العربي حينئذ هو المعروف الآن بالكوفى، ومنه استنبطت الأقلام كما في كتاب شرح العقيلة، ومن كتاب المصاحف: خشنام البصري والمهدي الكوفي، وكانا في أيام الرشيد ومنهم أيضا أبو حدي، وكان يكتب المصاحف في أيام المعتصم وهو من كبار الكوفيين، وأول من كتب في أيام بني أمية (قطبة المحرر)، وقد استخرج الأقلام الأربعة واشتق بعضها من بعض، وكان أكتب الناس في زمانه، ثم كان بعده الضحاك بن عجلان الكاتب في أول خلافة بني العباس فزاد على قطبة، ثم كان إسحاق بن حماد في خلافة المنصور والمهدي وله عدة تلاميذ، كتبوا الخطوط الأصلية الموزونة، وحين ظهر الهاشميون اُستحدث خط

يسمى العراقي وهو المحقق، ولم يزل يزيد حتى انتهى الأمر إلى المأمون فأخذ كتابه بتجويد خطوطهم.

وظهر رجل يعرف بت "الأحول المحرر"، فتكلم على رسومه وقوانينه وجعله أنواعا ثم ظهر قلم المرصع، وقلم النساخ، وقلم الرباسى، والفضل بن سهل، وقلم الرقاع، وقلم غبار الحلية، ثم كان إسحاق بن إبراهيم التميمي المكنى بأبي الحسن معلم.

المقتدر وأولاده، أكتب أهل زمانه، وله رسالة في الخط اسماها (تحفة الوامق).

ومن الوزراء الكتاب:

أبو على محمد بن على بن مقلة، المتوفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وهو أول من كتب الخط البديع وخط النسخ، الذي انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وهندس الحروف وأجاد تحريرها، ثم ظهر صاحب الخط الجميل على بن هلال المعروف بابن البواب المتوفي سنة ثلاثة عشر وأربعمائة، ولم يوجد في المتقدمين من كتب مثله ولا قاربه، ثم ظهر أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومى، ومن بعده أبو المجد ياقوت بن عبد الله الرومي.

دور الخطاطين الأوائل في تطور الخط العربي

ابن مقلة:

لابد من ذكر جهود الوزير ابن مقلة وأخيه الخطاط أبي عبد الله الحسن، فهما اللذان تمت على أيديهما هندسة خط النسخ، والجليل وفروعه على الأشكال التي نعرفها الآن، وهما اللذان قدرا مقاييس الحروف وأبعادها وضبطاها ضبطا جيدا.

الخطاط بن البواب:

هو أبو الحسن بن هلال من أعاظم الخطاطين بالعربية، وكان شيخه في الكتابة محمد بن أسد الكاتب لقب بأبن البواب، لأن أباه كان بوابا لدى آل بويه أقام الخط على قواعد جمالية، وخلف بعده مدرسة في الخط تجري على آثاره، ولم يوجد في المتقدمين ولا في المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه.

الخطاط ياقوت الرومي :

هو جمال الدين ياقوت المستعصي الطواشي البغدادي أحد مماليك الخليفة المستعصم بالله العباسي كنيته أبو الدر وأبو المجد، وأصله من مدينة اماسيه في بلاد الروم، أخذ الخط عن الكاتبة زينب، وقلد خطوط ابن البواب، ومن تلاميذه نجم الدين البغدادي وعلم الدين سنجر، توفي ياقوت في سنة ٦٩٨ هجرية ببغداد.

الخطاط البوصيري:

هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري (٦٠٨ – ٦٩٥) هـ.

صاحب البردة، كان جيد الخط، وقد تعلم على يده أكثر من ألف طالب.

الخطاطون المعاصرون

إن تجويد الخط العربي والدقة والكمال في الكتابة ميدان واسع من ميادين الفنون الإسلامية، اشتهر فيه الكثير من الخطاطين في العصر الحديث، ونذكر فيما يلي لمحة موجزة عن حياة عدد منهم:

الخطاط محمد أوزجاى:

ولد الخطاط محمد أوزجاي بمدينة جاي قرة التابعة لولاية طرابرونا بتركيا، تخرج من كلية الشريعة التابعة لجامعة أتاتورك بأرضروم، وتعرف هناك على الخطاط فؤاد بشار، فتعلم على يديه خط النسخ ثم الثلث، بعد ذلك تعرف على الدكتور مصطفى أوغوردرمان، فكان الدليل والمرشد له في هذا المجال.

الخطاط إسماعيل حقي:

ولد في إسطنبول، وكان والده تلميذا لقاضي العسكر مصطفى عزت أفندى، وعمل إسماعيل حقي بعد دراسة الرسم

والنقش في مدرسة الصنايع النفيسة، موظفا بقلم الديوان الهمايوني، فتعلم فيه الخط الديوانى، والديواني الجلي والثلث الجلي، والصغراء على يد الخطاط الأشهر سامي أفندي.

الخطاط جلال أمين صالح:

ولد بالأردن عام ١٩٤٦ م، وحصل على الليسانس في الجغرافيا، وكذلك درجة الدبلوم في الخط العربى، عمل بتدريس الخط سنوات عديدة، وأقام المعارض الكثيرة في الرسم والخط العربي، وله كتاب في الخط العربي بعنوان (مذكرات في الخط العربي)، عمل خطاطا لإدارة المراسم الملكية بالمملكة العربية السعودية أثناء انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي الثالث بالطائف عام ١٤٠١ هـــ، فاز أكثر من مرة بالمسابقة العالمية للخط العربي التي تقام بأسطنبول في تركيا.

الخطاط بدوي الديرانى:

والد الخطاط السوري الكبير محمد بدوي الديرانى، درس قواعد التعليق الذي اشتهر به، وصار صاحب مدرسة خاصة على يد الخطاط مصطفى السباعي، ثم درس النسخ والثلث والرقعة والديواني على يد الأستاذ يوسف رسا، كما درس الكوفي والديواني الجلي على يد الأستاذ ممدوح الشريف الذي صاحبه مدة سبعة عشر عاما، له زيارات كثيرة إلى مصر وإسطنبول، وكان

ورعا في كتابة الخط، فلم يكن يمتهنه أو يبدله لغير هدف أسمى، وقد رفض أن يكتب الخط العربي داخل كنيسة، مع كل الإغراءات، توفي بدمشق في ٢٥ يوليو ١٩٦٧.

الخطاط محمد عبد القادر:

ولد الأستاذ محمد عبد عبد القادر بالقاهرة عام ١٩١٧م، بدأ تعلم فن الخط العربي بمدرسة خليل أغا على يد الأستاذ محمد رضوان الذي كان مشرفا فنيا على مدرسة تحسين الخطوط حينذاك، حصل على المراكز الأولى في سنوات دراسته، كما نال المركز الأول بدبلوم الخطوط عام ١٩٣٥ م، ومنح جائزة الملك السابق فؤاد وعمره ثمانية عشر عاما عمل خطاطا بمصلحة المساحة، ومنح جائزة الملك السابق فاروق وعمره عشرون عاما، عمل أستاذا منتدبا بمدرسة تحسين الخطوط العربية بالجيزة، كذلك بكلية الفنون التطبيقية، منح وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في عهد الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر.

الخطاط مختار البابا:

ولد مختار البابا في بيروت عام ١٩٣٨ م، تعلم أصول الخط على يد والده الخطاط كامل البابا، وخرجت أوائل لوحاته في أوائل السبعينات، وأسلوبه تقليدي في توجهه الفني رغم تجربته في الحروقية التي حاول من خلالها استخراج مكامن الجمال في

الحروف العربية التي يجعلها مزيجا من التماثل الهندسي والتناسق اللوني، وإلى جانب كونه فنانا فهو خبير خطوط بالمحاكم العدلية اللبنانية.

شارك مختار البابا في كثير من الفعاليات التعليمية الهادفة لتطوير مهارات الكتابة العربية لدى معلمي اللغة العربية، طبع عددا من الأمثلة التدريبية لأساليب الكتابة الصحيحة للأطفال والناشئة، أقام مختار البابا عدة معارض فنية بالعالم العربي وله مرسم فني في بيروت.

دور المرأة في إثراء الخط العربي

إن تميز المرأة في فن الزخرفة، وتفوق الرجل في فن الخط العربي في الغالب من الأمور الملاحظة في تاريخ الفن الإسلامى، وقد يكون ذلك هو الذي دفع البعض إلى التصور بأن فن الخط العربي كان مقصورا على الرجال.

ولكن لا يستطيع أي باحث أو مهتم بهذا الفن أن يغفل اهتمام المرأه بالخط العربي أو التقليل من إبداعها فيه، بل وتميزها في بعض الأحيان، وكان للمرأه في العالم العربي الإسلامي حضور مهم بمجال الخط العربي في الزمن الماضى، وكانت مساهمتها فعالة في تطوير القيم الجمالية داخل المجتمع.

خطاطات مبدعات

في بعض الكتب التاريخية هناك أسماء خطاطات كثيرات، ولمحات عن وجودهن وأعمالهن الخطية، صحيح أنها نصوص قليلة

ومقتضبة، ولكننا ندرك من خلالها أن حضور المرأة في مجال الخط القديم لم يكن ضئيلا، ومع الأسف لم تصلنا خطوط نسائية أصلية إلا نادرا، وقسم كبير مما وصلنا يبقى محفوظا في المكتبات القديمة، أو بعض المتاحف، وليس سهلا تصويره والتعرف عليه، على عكس نصوص الشاعرات العربيات في الزمن القديم، حيث يمكننا قراءة أشعارهن بسهولة، وذلك في دواوين الشعر المطبوعة والمتوفرة بشكل واسع في المكتبات.

تاريخيا كان الصعود والنزول لمكانة المرأة وفنها في المجتمعات الشرقية، له جذور قديمة، ففي وقت السلم والتطور الحضاري تجد المرأة مكانا لها، وتلعب دورا خلاقا، وعلى العكس في زمن الحروب والعنف، يتراجع دورها حيث تهيمن على المدينة أفكار الحنين إلى الماضي، وتتقهقر كل أشكال التقدم.

ساهمت المرأة في ممارسة الخط منذ العصور القديمة في الشرق، وكانت تشابه الرجال في هذه المهنة، ولكن الرجال آنذاك لم يسمحوا للمرأة بالمساواة في الحقوق مع الرجل، رغم أنهم يذكرونها في النصوص القديمة التي ترجمت عن الكتابات المسمارية، وما بعدها فقد كانوا يسمون المرأة ىننذاك – أم الأحياء – ويتكلمون عن حواء الرفيقة المشهورة لآدم، وكيف أنها كانت السبب في بداية تاريخ الإنسانية.

أشهر الخطاطات

ترك لنا التاريخ السومري أسماء نساء أجدن فن الكتابة، وما نسميهن اليوم بالخطاطات ومنهن اثنتان – أمامو وشات – أيا – وغيرهن مما يدل على حضور المرأة في الوسط الفني، وبعد ذلك دعا حمورابي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد) في شريعته إلى احترام المرأة وحرمة ضربها، ولكن فيما بعد وفي زمن الآشوريين والذين كثرت عندهم الحروب حرموا ظهور المرأة في الأماكن العامة بدون غطاء الرأس، وأدخلوا عقابا لمرأة يسمح بسحبها من شعرها، فتراجعوا عن التقدم الذي أحدثه حمورابي، وعلى الرغم من كفاح المرأة لنيل حقوقها في الشرق القديم، لكن كان الرجل يجد سهولة في الحصول على عمل أكثر من المرأة.

أخذت المرأة فيما بعد مواقع أدبية وفنية واسعة في بداية الإسلام، وكن يحاورن الرجال وجها لوجه، وفي تاريخ الخط العربي لا يمكن نسيان فضل المرأة في تطور جمال الخط، وإن تكن المرأة اليوم قليلة الحضور في عالم الخط، فإنها شاركت في الماضي بذوقها وإحساسها المرهف بخلق أجواء لابد منها للفن والثقافة داخل المدينة العربية القديمة.

ويذكر لنا التاريخ الإسلامي بعض أسماء النساء مارسن الخط ومن بينهن:

حفصة، الشفاء القرشية، عائشة بنت أبي وقاص، كريمة بنت المقداد، هند بنت أبي سفيان، أم كلثوم بنت عقبة.

وفي العصر العباسي في بغداد كان هنالك العشرات من الخطاطات، يعملن في المكتبات لنسخ الكتب، كذلك في الأندلس، وربما يبالغ بعض المؤرخين بالقول إن جامع غرناطة وحده كانت تعمل فيه بشكل يومي ألف امرأة لنسخ الكتب، ومن مئات أو آلاف الخطاطات ذكر لنا التاريخ بعض الأسماء على فترة زمنية تقارب الألف سنة.

وعلى الرغم من كون بعضهن كن يمارسن هوايات ومهنا أخرى، ولكن التاريخ يسجل لهن دور حقيقي في حيوية فن الخط العربي واستمراره، وهنا نذكر بعضهن:

- الخطاطة فضل من القيروان تركت مصحفا بخطها (٩٠٧).
- الخطاطة الشاعرة لبني عبد المولى، عالمة بالنجوم والحساب والعروض، كانت كاتبة للخليفة المستنصر بالله توفيت عام ٩٨٤م.
- الخطاطة القرطبية عائشة بنت أحمد والتي قيل عنها: لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعادلها علما وفهما وأدبا وشعرا، وكان لها مكتبة كبيرة توفيت عام ١٠٠٩م.

■ الخطاطة فاطمة الحلبية، ولدت عام ١٤٧٣م، اشتهرت بحسن خطها وتركت كتبا محفوظة.

■ الخطاطة مريم بنت مصطفى، استنسخت بعض الكتب منها (مختار الصحاح) للرازي ١٥٥١م.

■ الخطاطة زينب الشافعي عالمة وأديبة وشاعرة، ولدت في دمشق عام ١٥١٠م وتركت كتب مخطوطة بيدها.

■ الخطاطة أسماء عبرت، ولدت عام ١٧٨٠م تركت لوحة حلية محفوظة في قصر طوب كبى- إسطنبول — تركيا.

وفي زمننا الحالي تواصل العديد من الخطاطات في العالم العربي والإسلامي مواصلة الخط، ويذكر المؤرخون مثلا أنه كان في مكتبة قرطبة مائة امرأة ينسخن المصاحف، كما توجد أخبار مشابهة لمكتبات أخرى عديدة في العالم العربي الإسلامي.

المراجع

-إبراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية، سلسلة اقرأ – دار المعارف، القاهرة – ١٩٨٥.

-إبراهيم ضمرة، الخط العربي جذوره وتطوره، مكتبة المنار – الأردن – ١٩٨٨م.

-ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد.

-أحمد الذهب (الخطاط)، الخط العربي أرقى الفنون وأنبلها، دار الشمال للطباعة والنشر – لبنان – ١٩٨٩م.

-بلال عبد الوهاب الرفاعي، الخط العربي تاريخه وحاضره.

-زكي صالح، الخط العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٣م.

-سهيلة ياسين الجبوري، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، جامعة بغداد – ١٩٧٧م.

-شربل داغر، الحروفية العربية فن وهواية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، لبنان –١٩٩٠م.

-د. صفوان التل، تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجري الأول الإسلامي، الجامعة الأردنية ١٩٨١م.

-د. عبد الحميد صالح حمدان، علم الحروف وأقطابه، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٠–م.

-عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – ١٩٣٨م،.

-عبد الفتاح عبادة، انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والغربي، مطبعة هندية بالموسكي مصر- ١٩١٥م.
-د. عفيف بهنسي، الخط العربي، أصوله، نشأته، انتشاره، دار الفكر - ١٩٨٤ م.
-فوزي سالم عفيفي، نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية، وكالة المطبوعات -١٩٨٠م.
- كامل البابا، روح الخط العربي، دار العلم للملايين، لبنان - ١٩٨٤م.
-مايسة محمود داود، الكتابات العربية على الآثار الإسلامية من القرن الأول حتى القرن الثاني عشر، مكتبة النهضة المصرية -١٩٩١م.
-محمد طاهر الكردي، تاريخ الخط العربي وآدابه، القاهرة - ١٩٣٩م.

مقالات وأبحاث:

١- د. محمد يوسف صديق، الخط العربي وأثره الحضاري.
/http://hibastudio.com/calligraphy-and-its-cultural-effects
٢- مخلص مصطفى، الخط العربي، بدايات مجهولة وخطوط مهملة.
http://hibastudio.com/unknown-start

الفهرس